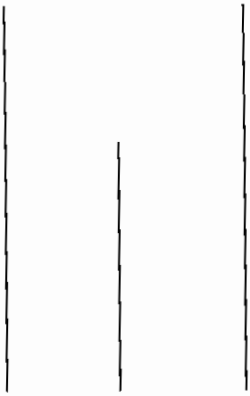

الجار

(حقوقه ـ علاقاته ـ أخلاقه)

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة
آداب إسلامية
(٢)

الجار

(حقوقه ـ علاقاته ـ أخلاقه)

قال رسول الله ﷺ:
«أحْسِنْ مجاورةَ مَنْ جاورك»
[رواه الترمذي]

تأليف
أحمد خليل جمعة

الطبعة الأولى

1423هـ - 2003م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

مقدمة

الحمدُ للهِ الواحد القهَّار ، مُكوِّر الليل على النهار ؛ الذي أوصىٰ بالجار وحُسْنِ الجِوار ، وأن يكون الخيرُ والتعاون بين الناس كالغيث المدرار .

والصلاة والسلام على النبي المصطفىٰ المختار ، وعلىٰ آله المبرَّئين الأطهار ، وعلىٰ أصحابه المهاجرين والأنصار ، ومَنْ تبعهم بإحسانٍ ما كرَّ ليلٌ وتعاقبَ نهار .

أمَّا بعد :

فقد دعا الإسلامُ إلىٰ توجيه العلاقات بين الناس وفق منظور الدِّين ، وحُسْنِ التّعامل ، والاحترام المتبادل ، وإعطاء الحقوق كاملة ، والوصول بها إلىٰ مرتبة الإحسان ؛ انطلاقاً من ضرورة إشاعة الرحمة في المجتمع ، وتوفير العدالة علىٰ مستوىٰ الأفراد كلهم .

واهتمَّ الإسلامُ بالأخلاق اهتماماً بالغاً ، كما أَوْلَىٰ رعايةَ المصالح الفردية والجماعية رعايةً لا تُضاهىٰ ، وذلك لِحفْظِ الحقوق ، وتمتين المعايير الخُلُقية ، وبثِّها في نواحي المجتمع ، فيسود العدل والسّلام ، وينتشر الاطمئنانُ والوئام ، وتنبجس الأعمالُ مُحقِّقةً الإخلاص ؛ لابتغاء وجه الله عز وجل ، تجسيداً لقول رسول الله ﷺ : « الخَلْقُ كُلُّهم عيالُ اللهِ ، فأحبُّ الخَلْقِ إلىٰ اللهِ أنفعُهم لعياله »[1] .

وأوصىٰ القرآنُ الكريمُ بِحُسْن الجوار ، والإحسان إلىٰ الناس قاطبةً ، فقال عز وجل : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾

[النساء : ٣٦] .

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ١٠٢) والديلمي في مسند الفردوس (٢٩٩٥) والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٦/ ٣٣٤) .

كما أوصىٰ النبيُّ ﷺ بالجار وصايةً مُثْلىٰ ؛ إذْ حَثَّ علىٰ عدم الإساءة إليه ، ودَفْع الشرور عنه ، وإزالة ما يُؤدِّي إلىٰ أذاه ، فقال ﷺ : « واللهِ لا يؤمن ، واللهِ لا يؤمن ، واللهِ لا يؤمن » قيل : مَنْ يا رسولَ الله؟ قال : « الذي لا يأمنُ جارُه بوائِقَهُ »[1] .

وفي حَجَّة الوداع كان من بين وصاياه ﷺ أنه أوصىٰ بالجار ، وذلك لعظيم حقِّه ، ولإساءة بعض الناس لجيرانهم ، فذكَّرهم بأداء هذا الحق بقوله ﷺ : « أوصيكم بالجار »[2] .

ويأتي التكافل الاجتماعي بين الجيران دعوةً إيجابية لتحقيقِ سلوكٍ إنسانيٍّ متميز على كلِّ الأصعدة : المادية والمعنوية ؛ لإزالة العقبات ، وإحلال المواقف الخيِّرة الإيجابية ؛ تحقيقاً للمبدأ القرآني القائل : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٦) ومسلم (٤٦) .
(٢) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٨/ ١٦٥) .

وللجوار آدابٌ كثيرة تجدرُ مراعاتُها ، وأهمُّها : حُسْن الخُلُق ، والصَّفْح عن العثرات ، وقلّة الخِلاف مع الجيران ، وعَدَم مواجهتهم بما يكرهون ، مع بشاشة الوجه ، وبَسْط اليد ، وكَظْم الغيظ . . .

وفي كتابنا هذا دعوةٌ توضيحية لحقوق الجيران ، وواجباتهم ، ورحلة ممتعة في الآيات والأحاديث ، وقصص الأنبياء والسَّلف الصالح ، والحِكَم والأشعار بما يهب القارىء الكريم أقباساً مِنْ نور الحق ، ومَضَات مشعّة تُنير الدرب للسّالكين ، وتُوضِّح مكانة الجار ، وضرورة الإحسان إليه ، والتعاون معه على البر والتقوى ، وتحقيق التكافل الاجتماعي ، ودَفْع الأذى عنه ، واحتمال الأذى منه ، وذلك لتبقىٰ الحياةُ الاجتماعية صالحةً ، مفعمةً بالسعادة ، عبقة بكل خير وهناءة ورَغَد .

ولابد أن أشير إلى أنني دوَّنت فصلاً حول المرأة الجارة ، وانتقيتُ أخبارها من عيون الكتب م والمصادر . وفيها جهدٌ كبير ، يدركه القارىء الكريم وهو يتلو تلك الصفحات .

اللهم اجعلنا مِمَّن يُؤَدُّون الحقوق لجيرانهم ، ويحفظونهم في مشهدهم ومغيبهم ، ويُقدِّمون لهم كلَّ ما يُدخِل السعادة إلىٰ نفوسهم .

اللهم اجعلنا ممَّا يحبُّون جيرانهم كأنفسهم ، ويُؤدُّون حقوقهم ، ويُراعونها ، فيزداد التآخي ، ويعمُّ التعاطف والتراحم ، وتظهر الروابطُ الاجتماعية متينة لا تنفصم عُراها على امتداد الزمن .

اللهم علِّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علَّمتنا ، وزِدْنا عِلماً يا أرحم الراحمين .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباب الأول

الجار والجوار في التراث

الفصل الأول : الجار عند العرب

الفصل الثاني : أسباب ظهور الجوار

الفصل الثالث : الجار في اللغة

الفصل الأول
الجار والجوار في الثُّرات

من الآدابِ التي تتحلَّىٰ بها الأمة الإسلاميةُ أدب الجارِ والجوار ، حيثُ إنَّ للمسلمين تميُّزاً في خصائلَ فاضلةٍ عُرفَتْ عنهم ، ولم تُعرف للأمم الأخرىٰ ، ومنها ما يتصل بآداب الجار ، فقد وردتنا حصيلةٌ أدبيةٌ رائعةٌ عنِ العربِ والمسلمين في مختلفِ الأعصرِ والدُّهور عن الجارِ والجوار .

ـ ولقد احتفىٰ العربُ في جاهليتهم ، والمسلمون في ظلالِ الإسلامِ بالجار ، وأجادوا رسْمَ معالم هذا الأدب الجميل الذي يُعتَبرُ منَ الآدابِ الاجتماعيةِ المهمّةِ التي حرصَ الإسلامُ الحنيفُ علىٰ تنظيمها وتقويتها ورعايتها .

ـ ولقد سجَّلَ العربُ في سجلِ مفاخرهم هذه المكرمة ، إذ رسموها شِعراً بأعذبِ الكلماتِ ، ووصفوها من خلالِ

مآثرهم ، وأمجاد آبائِهم وأجدادِهم وذويهم .

ـ ولعلَّ منْ مكارمِ أخلاقهم التي رسموها : حمايةَ الجار ، والإحسانَ إليه ، والرِّفقَ به ، كما رسموا مكارمَ أخرىٰ كالكرمِ ، والشَّجاعةِ ، والمروءةِ ، وما شابهَ ذلك .

ـ ولكنَّ العرب عدُّوا أدبَ الجارِ وحسنَ الجوارِ قيمةً اجتماعيةً كبيرةً تنبىءُ عن أخلاقهم ، فراحوا يسجّلونَ محامدهم من خلالها ، لأنَّهم يرون خلالها البقاء ، إذ يفنى الناسُ ، ولكنَّ المحامدَ باقيةٌ في قصور الثَّناء المشيّدة .

ـ وكان أهلُ الشَّرف منَ العربِ وأهلِ الجود ، يحرصون أشدَّ الحرص على تسجيلِ المآثرِ الحِسان في أوراقِ الأيامِ ، فهم يُنزِلونَ الجار منزلة خاصّةً في نفوسهم ، ويهتمون به اهتماماً بالغاً ، لأنه يذيعُ مناقبَهم ، ويثني عليهم في الحاضرِ والبادي .

ـ ومن العجيبِ أنَّ مكانةَ الجارِ في الجاهليةِ كان في الذِّروةِ العُلْيا من مكارمِ الأخلاق ، ومحاسنِ الآداب ، وجاءَ الإسلامُ فازدهرتْ هذه المكانة ، وانتعشتْ ووشّاها الإسلام بالأَجْرِ

والثَّواب ، وزيّنها بكمال الأدب ، وزهْر الآداب .

ـ إنَّ إعجابي بأدبِ الجار والجوار جعلني أرخي لقلمي العَنَان ، كي يجوبَ حضارتنا ، ويستثيرَ معالمها ، ويسجِّلَ ما رقَّ وراقَ في هذا المجال الذي يبعثُ في النفوسِ الشُّعورَ بالارتقاءِ والسُّموِ نحوَ درجاتِ الفضيلةِ والكمالِ ، وكُلُّنا مُعْجَبٌ بما شَدَا به شاعرُ الفروسيةِ عنترةُ بنُ شداد العبسيّ الجاهلي ، وهو يؤكد حُسْنَ الجوارِ للجاراتِ إذ يقول :

وأغضُّ طرفي إنْ بدتْ لي جارتي حتىٰ يُواري جارتي مأْواها

ـ إنَّه التقديرُ الكاملُ لوفاءِ العربِ في الجوارِ ؛ يقولُ الدكتور شوقي ضيف عن تمسُّك العرب بهذه المكرمة : وكانوا لا يقدّرون شيئاً كما يقدّرون الوفاءَ ، فإذا وعدَ أحدُهم وعداً ، أوفىٰ به ، وأوفتْ معه قبيلتهُ بما وعدَ ، ومن ثُمَّ أشادوا بحمايةِ الجارِ ، لأنَّهُ استجارَ بهم ، وأعطَوْهُ عهداً أنْ ينصروه[1] .

---

(١) انظر : تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف (العصر الجاهلي ص٦٩) .

الفصل الثاني

أسبابُ ظهور الجوار

لعلَّ الظُّروفَ التي أحاطت بالعربِ ، جعلتهم يضعون الجوار في المكانةِ العليا ، فقد غابَ الأمنُ عنْ بعضهم أحياناً ، فكانوا يلتمسون الاستقرارَ والأمنَ ؛ ليأمنَ الضعيفُ منْ ظلمِ القوي .

ـ وقد لجأ العربُ إلىٰ الحرمِ الآمِنِ قرب الكعبة المشرَّفة ، كما جعلوا زمناً للأمْنِ ، وهو الأشهر الحرم ، إذ لا تجوز فيها الحروبُ أو المناوشاتُ ، وهذه الأشهر أربعة[1] ؛ وهي ثلثُ العامِ .

---

(١) الأشهر الأربعةُ هي : رجب ـ ذو القعدة ـ ذو الحجة ـ والمحرّم . وسميت بذلك لأنَّ الله عَزَّ وجَلَّ حرّمها من عَهْد قديم ، والتزمت العرب بتحريمها . وقد أشارَ القرآن الكريمُ=

ـ ومنَ المعروفِ أنَّ الحياةَ الاجتماعيةَ في العصر الجاهلي لا يقوم على تنظيمها تشريعٌ أو قانونٌ ، لذلك نشأ الجوارُ وحمايةُ الجار ، وقويتْ أسبابُه حتىٰ غدا تقليداً اجتماعياً متّبعاً عند معظمهم .

ـ ولعلَّ نشأةَ حلفِ الفضولِ دليلٌ قويٌّ علىٰ إبرازِ أهميةِ أدبِ الجارِ والجوارِ في التّاريخ المكّي والعربي ؛ ولذلك نجدُ أنَّ المرأةَ كانتْ تجيرُ وتُقْبَلُ إجارتها ، أو يكون سببُ الجوارِ نابعاً منَ القرابةِ أو ما شابه ذلك .

إلا أنَّ أشهر ألوانِ الجوار ، وحماية الجار ، هو أنْ يطلبَ الضَّعيفُ من رجلٍ يوفِّرُ له الحماية ، وعندها يقبلُ الرَّجلُ أنْ يجيرَه ، وأنْ يدافعَ عنه .

ـ وفي تاريخِ الدَّعوةِ المحمديةِ العطرةِ في مكةَ صورٌ من

= إلىٰ الأشهر الحرم في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة : ٣٦] .

صُوَرِ الجوارِ وطلبِ الحمايةِ ، وقد فعلَ ذلك الحبيب المصطفىٰ ﷺ عندما رجع من الطَّائفِ ، وأراد دخول مكة ، فبعث إلىٰ المُطْعِم بن عدي أن يجيرَه فأجابه ، ثم إنَّ المطعمَ تسلَّح بأولاده وكانوا ستة أو سبعة ، وخرجوا حتىٰ أتوا المسجدَ ، فقامَ المُطعم علىٰ راحلته فنادىٰ : يا معشر قريش! إني قد أجرتُ محمداً ، فلا يؤذهِ أحدٌ منكم .

ـ ثم بعث إلىٰ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ أن ادخل مكة ، فدخَلَ المسجدَ وطافَ بالبيتِ ، وصلّىٰ عنده ، ثُمَّ انصرفَ إلىٰ منزلهِ ، والمطعمُ بن عدي وولده يطيفونَ به ، ولما أصبح خرج المطعم وبنوه في أسلحتهم فقالوا للحبيب الأعظم ﷺ : طُفْ ؛ واحْتَبَوا بحمائل سيوفهم في المطاف مدَّة طوافهِ ؛ وبينما هم كذلك ، إذ أقبل عليهم أبو سفيان ، وقال لمطعم : أمجيرٌ أنتَ أمْ تابِع ؟

فقال : مجير .

فقال : إذاً لا تخفر ، قد أجرنا مَنْ أجرتَ .

فجلسَ معه حتَّىٰ قضىٰ رسولُ الله ﷺ طوافَه[1] .

ـ ومن الطَّريف عند العربِ في جاهليتهم ، أنهم أجاروا الحيواناتِ والجرادَ ، فقد كان كليب بن ربيعة يجير الصيد ويحميه ، ويقول : صيدُ ناحيةِ كذا وكذا في جواري ، فلا يصيدُ أحدٌ منه شيئاً[2] . ولهذا ضُرِبَ به المَثَلُ في العزّ فقيل : أعزُّ من كليب وائل ، وكذلك فعل مدلج بنُ سُويد الطَّائي الذي نزلَ الجرادُ حولَ خبائه ، فمنعَ أحداً أنْ يصيدَه حتىٰ طارَ وبَعُدَ عنه[3] .

ـ هذا وقصَصُ الجوارِ والإحسانِ إلىٰ الجار وحمايته كثيرة منثورة في تاريخنا الزَّاهر ، ونظرة سريعة إلىٰ كُتب المصادر ،

---

(١) انظر : تاريخ الطبري (٢/ ٣٤٧) ؛ وطبقات ابن سعد (١/ ١٩٦) ، والسيرة الحلبية (١/ ٣٨١) مع الجمع والتصرف .

(٢) انظر الأغاني (٥/ ٣٩ و ٤٠) دار الكتب العلمية ط ٢ ١٩٩٢م ، وانظر كتاب جمهرة الأمثال (١/ ١١٠) .

(٣) انظر : مجمع الأمثال للميداني (١/ ٢٢١) .

كعيون الأخبار ، والأغاني ، والعقد الفريد ، والأمالي ، وبهجة المجالس ، وغيرها تعطي صورةً واضحةً عن هذا الأدب المقدّس عند أسلافنا وأجدادنا ، ولا نستطيع الاسترسال في هذا الموضوع لأنه واسع ، ولأنَّ المقام هنا يقتضي الإشارة والإيجاز ؛ ولكني أستطيعُ أنْ أوردَ هنا أبياتاً جميلة راقصة المعاني لأبي جعفر العدوي ، تمثل تلكم الأخلاق الحِسان ، في هذا المجال النبيل فيقول :

شِرىٰ جارتي ستراً فضُولٌ لأنَّني ... جعلتُ جفوني ما حييتُ لها سِترا

وما جارتي إلا كأمّي وإنَّني ... لأحفظُها سِرّاً وأحفظها جهرا

بعثتُ إليها انعمي وتنعّمي ... فلستُ مُحِلاً منك وجهاً ولا شَعرا[1]

* * *

(١) انظر كتاب : المنتقىٰ من مكارم الأخلاق ومعاليها للخرائطي (ص ٦٠) .

الفصل الثالث

الجار في اللغة

ـ حظيتْ كلمةُ الجارِ بمساحةٍ واسعة عند العلماء في كتبِ اللغةِ العربية ، وفي معاجمها .

ـ ومن معاني الجار الذي تُطالعنا به كتبُ المعاجم :

« الجار » : قال ابنُ الأعرابيّ : الجار الذي يجاورك بيت بيت .

ـ ومن معاني الجار :

« الجار » : النّفيح : هو الغريب .

و « الجار » : الشَّريك في العقارِ .

و « الجار » : المقاسمُ ؛ والحليفُ ، والنَّاصرُ ، والزوج .

والجارُ الذّمث : الحَسنُ الجوار .

والجار الصّنارة : السَّيِّىءُ الجوار .

والجار في الذّم : الجار المنافق .

والبراقشي : وهو المقلوبُ في أفعاله .

والحَسْدلي : الذي عينه تراك ، وقلبه يرعاك .

ويقال : الجارة : امرأة الرجل ؛ وهو جارها .

فالمرأةُ جارةُ زوجها ، لأنه مؤتَمرٌ عليها ، وصار زوجها ، لأنه يجيرها ويمنعها ولا يعتدي عليها ، وقد سمّىٰ الأعشىٰ في الجاهلية امرأته جارة فقال :

أيا جارتا بيني فإنَّك طالِقه وموموقةٌ ما دمتِ فينا ووامقَه

ـ ويقال : جاورت في بني هلال : إذا جاورتهم .

وأجار الرجل إجارة وجارَةً .

ـ واستجاره : سألَه أنْ يجيرَه ؛ وفي القُرآن الكريم : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] .

ـ قال الزجّاج ـ رحمه الله ـ : المعنىٰ : إنْ طلبَ منك أحدٌ منْ أهلِ الحربِ أن تجيره منَ القتلِ إلىٰ أن يسمعَ كلامَ اللهِ فأجره ؛ أي : أمّنْه ، وعرّفه ما يجب عليه أن يعرفَه منْ أمرِ اللهِ تعالىٰ الذي يتبيّنُ به الإسلام ، ثُمَّ أبلغهُ مأمنه لئلا يُصاب بسوءٍ قبل انتهائهِ إلىٰ مأمنهِ .

والجار : الذي أجرته منْ أنْ يظلمهُ ظالم .

ـ ويقال للذي يستجير بك : جار .

وللذي يجير : جار .

ـ والجارُ والمجيرُ : هو الذي يمنعك ويجيرك ، واستجاره من فلان فأجاره منه .

ـ وأجاره اللهُ من العذابِ : أنقذه .

ـ وفي الحديث : « ويجير عليهم أدناهم » ؛ أي : إذا جار واحد من المسلمين حرٌّ أو عبدٌ أو امرأةٌ واحداً ، أو جماعة منَ الكفّار وخَفَرهم وأمّنهم ، جاز ذلك على جميع المسلمين لا يُنْقَضُ عليه جواره وأمانه .

ـ والمجاورة : معناها الاعتكافُ في المسجد ، وفي الحديث أنَّه كان يجاوِرُ بِحراءَ ؛ وكان يجاورُ في العَشْر الأواخر من رمضان ؛ أي : يعتكف .

ـ وأمّا المجاورُ بمكةَ والمدينةِ ، فيُرادُ بها المقامُ مطلقاً غير ملتزمٍ بشرائطِ الاعتكافِ الشَّرعي[1] .

ـ وفي كلياته يقول الكفوي عن الجار :

« الجارُ الجنب » : أي البعيدُ الذي لا قرابة له ، كما أنَّ الجارَ ذا القربىٰ هو الذي قرّب جواره ، أو له مع الجوارِ قربُ اتّصالٍ بنسبٍ أو دِين .

والصَّاحب بالجنْب : أي القريب ، وصاحبك في السَّفر . والجار الجُنُب ؛ بضمَّتين : وهو جارك من غير قومك[2] .

---

(١) انظر : لسان العرب (٤/ ١٥٣ـ١٥٦) مادة « جور » بشيء من التصرف والاختصار ، وانظر المصباح المنير (١/ ١١٤) مادة « جور » .

(٢) انظر : الكليات لأبي البقاء الكفوي (ص٣٥٥) .

ـ ومن خلالِ هذه الزيارةِ الحلوةِ في رياضِ المعاجم ، وروضِ اللغةِ ، واقتطاف جنى زهْر أدب الجار[1] ، تبدّىٰ أنَّ معنىٰ الجارِ والجوارِ ؛ هو النَّصرُ والحمايةُ وإعطاءُ الأمنِ وردُّ العدوان ، وقيامُ الرجلِ أو الجماعةِ أو العشيرةِ بحسن الجوارِ وجودةِ الحماية ، كما ظهرتْ لنا بعضُ المعاني الخفيّةِ لهذه الكلمةِ منْ خلالِ ثنايا الكشفِ في المعاجم ، وكتب اللغة .

* * *

(١) مِنْ ذلك قول جعفر بن محمد : حُسْنُ الجوارِ عمارة للدّار ، وامتدحتْ أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها مجاورة الأنصار فقالت : ما تبالي المرأةُ إذا نزلتْ بين بيتين منَ الأنصارِ صالحين ألا تنزلَ من أبويها .

الباب الثاني

الجار في القرآن الكريم

الفصلُ الأوّل : الجارُ في آياتِ القرآن

الفصل الثَّاني : منْ نفحاتِ الجارِ فيْ هديِ القُرآن

الفصلُ الأول

الجارُ في آياتِ القرآن

وردتْ كلمةُ الجارِ ومشتقاتُها في كتابِ اللهِ في بضعة عشر موضعاً ، وهذا الأدبُ علىٰ الرغم من أنَّه لم يَرِدْ كثيراً في ثنايا كتاب الله وآياته ، إلا أنَّ مدلولاته واسعةٌ كثيرة المعاني .

ـ ولعلَّ مادة « جور » في القرآن العظيم ، والتي يُشتقُّ منها كثيرٌ من المفردات ، لم ترِدْ في كتاب اللهِ إلا في أحد عشر اشتقاقاً وهي : أجار ـ الجار ـ يجاورونك ـ متجاورات ـ يُجركم ـ يجيرُ ـ يجيرني ـ فأجره ـ يجار ـ استجارك ـ جائر .

ـ ومنَ الجدير بالذّكرِ أنَّ هذهِ الاشتقاقات جميعها قد وردتْ في (١٣ موضعاً) منَ القرآن الكريم في سُورةٍ المكيّة والمدنيّة ؛ ووردتْ كلمة الجار في ثلاثة مواضع فقط في

سورتين هما : النِّساء ، والأنفال ؛ وبقية الاشتقاقات وعددها عشرة قد وردت في ثماني سُور من القرآن الكريم وهي : « التوبة ـ الرعد ـ النحل ـ المؤمنون ـ الأحزاب ـ الأحقاف ـ الملك ـ الجن » .

ـ ومنْ أهمّ المعاني التي دارتْ عليها كلمةُ الجارِ في القُرآنِ الكريم ؛ أنَّ الجارَ يُطْلَق على معانٍ : منها المقاربُ في السَّكن ، ومنها الحليفُ والنَّصيرُ ، وقد جاءَ هذا في قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٨] . والجار هنا : الحليف والنصير .

ـ وكقوله تعالىٰ : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ [النساء : ٣٦] . والمعنىٰ هنا : المقاربُ في السَّكن .

ـ ولما تُصوِّرَ في الجار معنىٰ القرب لمن يقرب من غيره قيل : جاوره ، وهما متجاوران وهنّ متجاورات .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب : ٦٠] .

ـ ولما تُصوّر في الجار معنى الحِلْف والنصر قيل : استجارَ فلانٌ بفلانٍ ، واستجاره فأجارَه ، أي : طلبَ حمايته فحمَاهُ ومنعَه ، وحقيقتهُ طلبُ جوارهِ ليكونَ في كنفهِ ويستوجب رعايته فيأمن ، قال تعالىٰ : ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف : ٣١] . وقوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون : ٨٨] . ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن : ٢٢] . وقوله : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] .

ـ ومن مدلولاتِ الجار في القرآنِ العظيم ؛ نقول : جارَ فلانٌ عنِ الطَّريقِ ، يجورُ جوراً فهو جائرٌ ، كأنَّه تركها وصارَ إلىٰ جوارها ، وقد جعلَ ذلك أصلاً في العدولِ عنْ كلِّ حقّ فبنىٰ منه الجور . قال تعالىٰ : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل : ٩] . أي : مائلٌ عن

الحقِّ منحرفٌ عنه لا يوصل سالكه إليه .

ـ وعن الجارِ في آياتِ اللهِ يحدثُنا الرَّاغبُ الأصفهاني فيقول :

« الجار » : مَنْ يقربُ مسكنه منك ، وهو مِنَ الأسماء المتضايفة ، فإنَّ الجار لا يكونُ جاراً لغيره إلا وذلك الغيرُ جارٌ له ، كالأخِ والصَّديقِ ، ولمّا استُعظمَ حقُّ الجار عقلاً وشرعاً عُبِّر عن كلِّ مَنْ يعظم حقُّه أو يستعظم حقَّ غيره بالجار ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ [النساء : ٣٦] .

ـ ويقال : استجرته فأجارني ، وعلىٰ هذا قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٨] . وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون : ٨٨] . وقد تُصوِّرَ منَ الجارِ معنىٰ القرب ، فقيل لمن يقرب من غيره : جارَه ، وجاوره ، وتجاور ، قال تعالىٰ : ﴿ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٠] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ [الرعد : ٤] . وباعتبار القرب قيل : جارَ عن الطَّريق ، ثم جعلَ ذلك أصلاً في العدول عن كل حقّ ، فبُني منه الجور ، قال

تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ [النحل : ٩] . أي : عادلٌ عن المحجَّة . وقال بعضُهم : الجائر منَ النَّاسِ : هو الذي يمنعُ من التزام ما يأمرُ به الشرعُ[1] .

* * *

(١) مفردات ألفاظ القرآن (ص ٢١١) دار القلم ـ دمشق ط ١ ١٩٩٢م .

الفصل الثاني

من نفحاتِ الجارِ في هدي القرآنِ

قد يظنُّ ظانٌّ أنَّ الحياةَ العصرية ، والحضارة المدنية ، قد رسمتْ علاقة الجوار بشكلٍ لطيف ، ونظّمت علاقة الجار بجارِهِ! ولكنَّ الحقيقةَ خلافُ ذلك ، فهناك أمور كثيرة قد شوهتها المدنيَّةُ المزركشةُ بالحضارةِ المجلوبة ، ومنها أدب الجار ، إذ بَرَدَتِ العلاقاتُ بين الناس ، وتباعدتِ الزياراتُ علىٰ الرغمِ من التصاق البيوت ، حتىٰ غدا الجارُ لا يعرِفُ جاره ، ومع هذا وذاك نتحدثُ عن الحضارة ، وعن روح المدنية بفخر واعتزاز ، ولكنا لا ندري كم منَ الأضرارِ تلحقنا من وراء ذلك .

ـ ولما كانتْ نفحاتُ القُرآن تبعثُ رذاذها علىٰ نفوسنا في

هذا المجال ، فإننا نرىٰ أنه قد اهتمَّ اهتماماً عظيماً بالجار ، وأشادَ بهذه العلاقة الاجتماعية التي تقوي أواصر المحبّة بين الناس .

ـ فقد أمرَ القُرآن بالإحسانِ إلى الجار ، وأوصىٰ به خيراً ، وجعلَ له على جاره حقوقاً تجبُ مراعاتها ، والنصوصُ الكريمة في هذا المضمار متعددة ، ومنها قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء : ٣٦] .

ـ وهذه الآيةُ العظيمةُ جمعتْ مَنْ لهم حقّ القرب والمخالطة ؛ فذكرتِ الوالدين ، والأقارب والأيتام والمساكين ، ثم تعرضت إلىٰ أدب الجار ، وتحدثتْ عنِ الجار بشيءٍ من التفصيل والتوضيح فجعلتْ من هذا الجوار صنفين :

الأول : الجار ذو القربىٰ .

الثاني : الجار الجنب .

ـ قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي : القريب : ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ أي : الغريب . قاله ابن عباس .

ـ وقال نوف البكالي : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ : المسلم . ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ : اليهودي والنصراني[1] .

ـ وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ يعني : الذي بينك وبينه قرابة . ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ الذي ليس بينك وبينه قرابة .

ـ وذُكِر عن علي بن أبي طالب وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ يعني : المرأة .

---

(١) انظر : تفسير القرطبي (٥/ ١٨٣) بتصرف يسير ؛ وانظر تفسير الطبري وابن كثير للآية (٣٦) من سورة النساء .

ـ وقال مجاهد أيضاً في قوله : ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ يعني : الرفيق في السفر[1] .

ـ وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي المتوفىٰ سنة (١٣٧٦ هـ) في تفسيره المسمىٰ : « تيسير الكريم الرحمن في كلام المنان » في تفسير الآية (٣٦) من سورة النساء : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء : ٣٦] أي : الجار القريب الذي له حقّان : حق الجوار ، وحق القرابة ، فله على جاره حقّ وإحسان راجع إلى العرف . وكذلك ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ أي : الذي ليس له قرابة . وكلما كان الجار أقرب باباً ، كان آكد حقاً ، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية ، والصدقة ، والدعوة ، واللطافة في الأقوال والأفعال ، وعدم أذيته بقولٍ أو فعل[2] .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٦٠٤) دار ابن كثير ـ دمشق ط ١ ١٩٩٤م .

(٢) انظر : تفسير السعدي (ص ١٤٣) مؤسسة الرسالة ط ١ ١٩٩٦ م .

ـ وقد فسَّر بعضُ الصَّحابةِ والتابعين الصَّاحبَ بالجنب بالجار الملاصق ، أو المرأة ، أو الرفيق في السّفر ، أو الضَّيف ، أو الذي يمرُّ عليك مجتازاً في السفر ، فقالوا : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي : الجار القريب ، فله عليك حقّ الجوار وحق القرابة ؛ ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ أي : الجار الأجنبي الذي لا قرابة بينك وبينه ؛ ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ قال ابنُ عباس : هو الرفيقُ في السّفر .

ـ وقال الزمخشريُّ : هو الذي صحبكَ إما رفيقاً في سفر ، أو جاراً ملاصقاً ، أو شريكاً في تعلُّم عِلْم ، أو قاعداً إلىٰ جنبك في مجلس ، أو غير ذلك مَنْ له أدنىٰ صحبةٍ التأمتْ بينك وبينه ، فعليك أنْ ترعىٰ ذلك الحق ، ولا تنساه ، وقيل : هي المرأةُ[1] .

ـ ولعلَّ في حديثِ رسول الله ﷺ صورة مضيئة عن أنواع

---

(١) انظر : الكشاف (١/ ٣٩٣) .

الجار والجيران ، فقد قسَّم الجيران إلىٰ ثلاثة أنواع فقال : « الجيران ثلاثةٌ : جار له حق واحد ، وهو أدنىٰ الجيران حقاً ؛ وجارٌ له حقّان ؛ وجار له ثلاثة حقوق ، وهو أفضلُ الجيران حقاً . فأمّا الذي له حقّ واحدٌ فجار مشرك لا رحم له ، له حقُّ الجوار ، وأما الذي له حقّان فجار مسلم ، له حقُّ الإسلام وحق الجوار ؛ وأمّا الذي له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم ، له حقّ الجوار ، وحق الإسلام ، وحق الرحم »[1] .

ـ إنَّ آياتِ القرآن الكريم تقصُّ علينا أنَّ الله قد أوصىٰ

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم (١/ ٦٠٦) ؛ وهذا الحديثُ روىٰ نحوه أبو نُعيم في الحلية (٥/ ٢٠٧) ، وقال : غريب .

ورواه الديلمي في الفردوس برقم (٢٦٢٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٦٤) : رواه البزار عن شيخه عبد الله بن محمد الحارثي وهو وضاع ؛ وانظر : كشف الأستار (١٨٩٦) ، وقال البزار : لا نعلمه عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد .

بالجار عموماً ، أما الجار القريب قرابة رحم فله حقّان : حقّ القرابة ، وحق الجوار .

ـ وأما غيره فله حقّ الجوار فقط ، وقد أوصىٰ اللهُ بالجار الأدنىٰ ، وبالجار غير الأدنىٰ .

* * *

الباب الثالث

الجار في الهدي والسنة النبوية

الفصل الأول : الجارُ في الهدي النّبوي

الفصل الثاني : الجارُ في أحاديث المصطفىٰ ﷺ

الفصل الثالث : التربية النبوية في معاملة الجار

الفصل الأول

الجارُ في الهدي النبوي

منَ المطربِ حقاً أنْ نجدَ في شريعتنا الغرّاء ، ما يزيدُ ترابطَ النَّاسِ بعضهم ببعض ، وهذا يولّدُ المحبَّة ، فمن مظاهرِ التراحمِ بين المسلمين إكرامُ الجار ، والإحسان إليه ، وحفظ حرمته ؛ وفي الهدي النبوي وصايا ملحّةٌ تؤكد هذا الأدبَ وتحميه بل وتغذيه .

ـ لقد أكّدتِ السُّنَّةُ النَّبويّةُ حق الجار ، وجعلته من تمام الإسلام ، وأمرتْ باحترامِ حقوقِ الجوار ، وعظَّمتِ الوفاء به ، كما حدّدت الجوار وميّزتهُ عن غيره ، وجعلتهُ جوارَ المنزلِ والقرابةِ في السَّكنِ .

ـ إنَّ الهدي النَّبوي يكبرُ ظاهرة كلّ فضيلة من مكارمِ

الأخلاقِ بشكل عام ، ولعلَّ ذلك يبدو أظهر وآكد في موضوعِ الجارِ والأقربينَ والأصحابِ والخلاّنِ .

ـ وللجار علىٰ الجار ـ في ضوء الهديِ النّبوي والآدابِ الشرعية ـ حقوقٌ تشبه حقوق الأرحام علىٰ الأرحام ، فللجار حقّ المواصلة بالزيارة والتهادي والعيادة والمواساة والمعونة ، وله حقُّ كفِّ الأذىٰ ، والمناصرة بالحق والنصح له ، وتهنئته ، ومشاركته في مسرّاته ، ومواساته في مصائبه .

ـ إذاً فلا بدَّ أنْ يكونَ التأكيدُ علىٰ الوفاءِ باحترامِ الجارِ ، واحترامِ المعنىٰ الأخلاقي له ، من أجل ذلك جاء الهديُ النَّبويُّ الذي جعل للجار مكانةً رفيعةً من الاحترام ، وكاد يجعل له منَ الحقوقِ ما لصلة القربىٰ والرحم ، كما جاء في الصحيح عن عبد الله بنِ عمر ، وعن أمِّنا عائشة ابنة الصديق ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ قالا : قال رسول الله ﷺ : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتىٰ ظننتُ أنَّه سيورّثه »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠١٤ و ٦٠١٥) ، ومسلم برقم =

ـ ولعلَّ ما جاءَ في هذا الهدي النبوي يشبه ما كانَ الأجوادُ الأشرافُ من العربِ يفعلونه في العصرِ الجاهلي ، عندما يجيرون الجارَ من العوزِ والفقر ما دام نازلاً في جوارهم ، بل يضمنون له المال والغنىٰ ، وفي هذا يقول حاتم بنُ عبد الله الطائي مُظهِراً مكانة الجار ، بل له الخيار في المال إن أراد ذلك :

إذا كانَ لي شيئان يا أمَّ مالكٍ فإنَّ لجاري منهما ما تخيّرا[1]

ـ ويذكر ابن سلام أنَّ شبيب بن البرصاء قد قدّم للجار ضماناً من الفقر ، وأماناً شاملاً لماله ، ما دام مجاوراً في قوم شبيب ، إذا ما خسرَ المال ، أو نزلتْ به نازلةٌ من النّوازل ، فإنَّ مال هذا الجار مضمون ، ويرمم نقصه ؛ يقول شبيب :

ترىٰ إبلَ الجارِ الغريبِ كأنَّها بمكة بين الأخشبين مرَادُها

= (٢٦٢٤ و ٢٦٢٥) ، وأبو داود في الأدب برقم (٢١٥٢) ، والترمذي في البرّ والصِّلة برقم (١٩٤٣) .

(١) انظر : ديوان حاتم الطائي (ص٣٩٦) .

يكونُ علينا نقصُها وضمانُها وللجارِ إنْ كانتْ تزيدُ ازديادُها

ـ وقد حبَّبَ الهديُ النبوي بتوجيهاته الحسان ، ونفحاته الوضيئةِ الكريمةِ إكرامَ الجار ، ولكن في حدود الإيمان ، فقد جاء في هديه ﷺ الحثُّ علىٰ إكرامِ الجار ، وأنَّ ذلك من الإيمان فيقول : « مَنْ كان يؤمنُ باللهِ واليوم الآخرِ فليكرمْ جاره »[1] .

ـ ولهذا وجدَ العربُ والمسلمون في الهدي النبوي ما ألِفوه من أخلاقٍ كريمةٍ في الأعصر الجاهلية ، وعندما جاءَ الإسلامُ ، وأيّد هذا الأدب الكريم اللطيف ، ودعا إلى إكرامِ الجارِ ، أقبلَ المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يعملون بالهدي النبوي ، لأنَّ في إكرام الجار في ضوء الإسلام حسنات ، ودخول جنات .

ـ وفي السُّطور التاليات نعيش في رحابِ بعض الأحاديث النبوية التي تتحدث عن الجار في معظم أحواله .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب برقم (٦٠١٩) ؛ ومسلم في اللقطة برقم (٤٨) .

الفصل الثاني

الجارُ في أحاديثِ المصطفىٰ ﷺ

ـ في أحاديثِ البشيرِ النذيرِ ﷺ مساحات واسعات ، تحدّثَ فيها المصطفىٰ ﷺ عن الجار ، وعن حقوقه وماله وعليه ، ولا يستطيعُ الباحثُ أنْ يستقصي تلكم الأحاديث جميعها ، ولكنا نختار بعض الأحاديث التي توضح أدب الجار في معظم نواحي مكارم الأخلاق .

ـ فلقد حثَّ الحبيب الأعظم ﷺ علىٰ إكرام الجارِ ، وشدّدَ وحذّرَ من إيذائه ، حتىٰ كاد يكونُ إيذاءُ الجارِ مُخرجاً منْ دائرة الإيمان ، أو علامة من علاماتِ فقدِ الإيمان ، لأنَّ أوصافَ المؤمنِ الكريمِ أنْ يكونَ مأمونَ الجانبِ ، كريمَ الجوار ، فكيف بالذي لا يأمن جاره شروره وأذاه ؟ وفي هذا أخرج

الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « واللهِ لا يؤمن ، واللهِ لا يؤمنُ ، واللهِ لا يؤمنُ » قيل : مَنْ يا رسولَ الله؟

قال : « الذي لا يأمنُ جاره بوائقه »[1] .

ـ وعن أبي هريرة أيضاً ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « مَنْ كان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخر فلا يؤذِ جاره »[2] .

ـ إنَّ الذي يؤذي جارَه وجيرانَه ، يتنافىٰ سلوكُه مع مقتضىٰ إيمانِهِ إنْ كانَ مؤمناً ، وهو محروم منْ أوّليات فضائلِ الأخلاقِ ، فالأذىٰ والإيذاءُ ليسا من أخلاقِ المؤمنينَ في جميعِ الأوقاتِ والأحوال ولجميعِ الناسِ ، فكيف بإيذاء الجار لجاره؟

ـ إنَّ للجار حقوقاً علىٰ جاره تجبُ مراعاتها ، ودعا الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ إلىٰ إكرام الجارِ بكلِّ الأحوالِ فقال :

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠١٦) ، ومسلم برقم (٤١) .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦١٣٦و٦١٣٨) ؛ ومسلم برقم (٤٨) .

« مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليكرمْ جاره »[1] .

ـ وعن الحسنِ البصري ـ رحمه الله ـ أنَّه كان لا يرىٰ بأساً أنْ تطعمَ جارَكَ اليهوديَّ والنّصراني منْ أضحيتك[2] .

ـ وفي الأحاديثِ النبويةِ الشريفةِ فيضٌ منْ مكارم الأخلاق ، ومنها أنَّ رسول الله ﷺ بيّن أنَّ خيرَ الجيرانِ خيرُهم لجاره ؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « خيرُ الأصحابِ عند اللهِ خيرُهم لصاحبه ، وخيرُ الجيران عند اللهِ خيرُهم لجاره »[3] .

ـ وقال ﷺ لأبي هريرة من حديث طويل : « يا أبا هريرة ، أحسن مجاورة مَنْ جاورك تكن مسلماً »[4] .

ـ ومنَ الأحاديث النبوية الرائعة التي توثّق عرا المحبة

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/٤٤١) ؛ ومسلم في الإيمان برقم (٤٨) ، ومالك في الموطأ (٢/٩٢٩) .
(٢) انظر : المنتقىٰ من مكارم الأخلاق للخرائطي (ص٥٦) .
(٣) أخرجه الترمذي برقم (١٩٤٤) .
(٤) أخرجه الترمذي في الزهد برقم (٢٣٠٥) .

والأخوة بين الجار والجار ، التهادي بينهم في الطعام والشّراب وما شابه ذلك ، إذ إنَّ الجارَ في وصايا الحبيب الأعظم محمد ﷺ هو خيرُ ناصر ومعين ، وخيرُ حارس وأمين ، يطعمُ جارَه منْ طعامهِ إذا هو جاعَ ، ويهدي له من طبخه ولو كان غير ذي حاجة أو يشاركه أفراحه ومسرّاته ، ويتعاون معه على البرّ والتقوىٰ ، ويحفظه في أهله وذريته .

ـ ومنْ حقِّ الجار علىٰ جاره ألا يحتقر هديته مهما كانت ، إذ ليس المقصودُ منَ التَّهادي إلا توثيق عرا المودات ، لا التفاخر والتظاهر ، ففي الهدية مهما كانت تنعقد المودّات ، وتتوثقُ الرَّوابط الاجتماعية بين المسلمين وخصوصاً الجيران ، وفي أحاديث الحبيب المصطفىٰ ﷺ ووصاياه فيض يؤكد ما ذكرناه ، ومنه ما أخرجه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر إذا طبختَ مرقةً فأكثرْ ماءَها وتعاهَدْ جيرانك »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم في البرّ والصلة برقم (٣٦٢٥) .

ـ ولا يتوقف نصح رسول الله ﷺ لأصحابه فقط ، وإنَّما يتوجه بالنُّصح في إكرام الجار إلىٰ نساء المسلمين كي يتهادين ، ولو كانتِ الهدية قليلة مثل ظلف الشَّاة .

ـ أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « يا نساء المسلمات لا تحقرنَّ جارة لجارتها ولو فرسن شاة »[1] .

ـ وها هو النُّصح النَّبوي بإكرام الجارِ يدخلُ بيته الشريف ، ويخص نساءه الطّاهرات ؛ فقد أخرج البخاري عن أمّنا عائشة رضوان الله عليها قالت : قلت يا رسول الله ، إنَّ لي جارين ، فإلىٰ أيّهما أهدي؟!

قال : « إلىٰ أقربهما مِنْكِ باباً »[2] .

ـ إنَّ الأحاديثَ النّبوية كثيرةٌ ، وفيها توصيةٌ عظمىٰ بالجارِ ، وحسنِ الجوارِ ، وتبيِّن إلحاحَ الإسلام علىٰ الوصية

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .
(٢) أخرجه البخاري .

بالجار ، والتحذير من إيذائه ، ومن كثرة ما أوصىٰ جبريل حبيبنا محمداً ﷺ بالجار ظنَّ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ أنَّه سينزل تشريع بتوريثه .

* * *

الفصل الثالث

التربية النبوية في معاملةِ الجار

ـ كان الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ يهتمُّ بالجارِ ، ويربّي أصحابه علىٰ معرفةِ حقّ الجار ، وقد عرّفهم أنَّ الجار هو كل مجاور عن اليمين والشّمال إلىٰ أربعين داراً ، وهؤلاء جميعهم لهم حقوقٌ ، فلا يُلحقِ الرجلُ الأذىٰ بجاره ، بل يحميه ، ويعامله بإحسانٍ ، ويقابل جفاءَه بالحلم والصفح والتجاوز والمسامحة والإغضاء .

ـ إنَّ أذىٰ الجارِ لا يجوزُ من جميع النَّواحي ، منْ سرقةٍ ، أو سبابٍ وشتائم ، أو رمي الأوساخ أمام منزله ، ويحافظ علىٰ شرفه ، وألا ينظر إليه بعين الاحتقار ، فقد ينظر بعضُهم إلىٰ جارهم الفقير نظرة ازدراء ، ويمتدُّ بهم الأمر ، فيحتقرون

جارهم المسكين ، لكن أصحاب رسول الله ﷺ تربّوا علىٰ الخلال الحسنةِ والإحسانِ للجار ؛ قال حسَّان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه :

فما أحدٌ منّا بمهدٍ لجاره أذاةً ولا مُزْرٍ به وهو عائدُ
لأنا نرىٰ حقَّ الجوارِ أمانةً ويحفظهُ مِنّا الكريمُ المعاهدُ

ـ ولعلَّ التربيةَ النّبوية أوصتْ بحمايةِ الجار ، وكفّ الظلم عنه ، لأنَّ ذلك يؤثّر في طهارة النفوس ، وصفائها ، فما أجمل أنْ ينهض الرجل لإنقاذ جاره من مصيبة نزلت به ، وقد افتخر الصّحابة الكرام بذلك ، قال حسّان بن ثابت رضي الله عنه :

ولا ضيفنا عند القِرىٰ بمدفّعٍ وما جارُنا في النائباتِ بِمُسْلَم

ـ وقال أيضاً :

يواسون مولاهُم في الغنىٰ ويحمونَ جارهم إنْ ظُلِمْ

ـ وفي سجل التربية النبوية نجدُ بابَ الإحسان إلىٰ الجار من أوسعِ الأبواب ، إذ الإحسان إلىٰ الجار عنوان التربية النبوية ، وقد عدّها مِن خصالِ الإيمانِ بالله ، وباليوم الآخر .

ـ وقد تلقّىٰ الصحابةُ الكرامُ هذه التربية عن الحبيب الأعظم ﷺ ، ومن ذلك ما ذكره مجاهد ـ رحمه الله ـ قال : كنتُ عندَ عبد الله بنِ عمرَ رضي الله عنهما وغلامٌ له يسلخُ شاة ، فقال : يا غلام ، إذا سلختَ فابدأ بجارِنا اليهودي ، حتىٰ قالَ ذلك مراراً ؛ لأنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتىٰ ظننتُ أنَّه سيورثه »[1] .

ـ إنَّ المتأدبين بأدبِ التربيةِ النبوية ، يحافظون علىٰ حقِّ الجار حق المحافظة ، ويحسنون إليه حق الإحسان ، فيبذلون ما يطلبه من مثل : الماء ، والملح ، والنار ، وإعارته ما تعارف النّاسُ استعارته من أمتعة البيت كالقدر ، والصّحون ، والسكين ، وما شابه ذلك .

ولذلك كان العرب يضربون المثلَ في حسن الجوار والإحسان إلىٰ الجار ؛ بأبي دؤاد ، وأبو دؤاد هذا ؛ هو كعبُ بن مامة ، فيقولون : جارٌ كجار أبي دؤاد . وكان أبو

---

(١) أخرجه الشيخان ؛ وقد سبق تخريجه .

دؤاد هذا إنْ هلكَ لجارهِ بعيرٌ أو شاةٌ أخلفها عليه ، وإذا ماتَ الجارُ أعطىٰ أهله ديته من مالهِ .

ـ ومن دعائمِ التربيةِ النبويةِ في معرفةِ حقوقِ الجار احتمال أذاه ، والتغاضي عن هفواته ، والصفح عنه إذا أخطأ ، فإنَّ ذلك من أعلىٰ مراتبِ حسنِ الجوارِ ، وأرفع مراتبِ الكرامة ، وأرفع الدرجات . فقد يكون الصفح عن المذنبِ دواء ناجعاً في الكفِّ عن سوء جواره وخلقه ، وتقويماً لانحرافه ، فيعود الجفاء إلىٰ ألفة ، والبغضاء إلىٰ محبةٍ ؛ أليس ربنا عَزَّ وجَلَّ قد قال : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[1] [فصلت : ٣٤] .

ـ ومنْ ألوانِ التربيةِ النبوية ، ما جاء عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال : « يا أبا الدرداء ،

---

(١) وقد أخذ بعض الفُضلاء معنى هذه الآية وضمّنها بقوله :

بمكارم الأخلاقِ كُنْ متخلّقاً ... ليفوحَ ندُّ ثنائك العَطِر الشذي
واصدق صديقك إنْ صدقتَ صداقةً ... وادفع عدوّك بالتي فإذا الذي

أحسنْ جوار مَنْ جاورك تكنْ مؤمناً ، وأحبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك تكنْ مسلماً ، وارض بقسم الله لكَ تكنْ من أغنىٰ الناس »[1] .

ـ ومن الألوان والوصايا النبوية في الجار ، ما جاء عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال له : « وأحسنْ إلىٰ جارِكَ تكنْ مؤمناً »[2] .

* * *

(١) انظر في هذا : الترغيب والترهيب (٣/ ٣٥٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد برقم (٢٣٠٦) من حديث طويل .

هذا والآثار النبوية كثيرة في هذا المجال ، ولا يتسع المقام لذكرها ، واكتفينا بذكر أهمها في هذا المجال .

الباب الرابع

الجار في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ

الفصل الأول : النجاشي خيرُ جار

الفصل الثاني : النبيُّ ﷺ جارُ أبي أيوب الأنصاري

الفصل الأول

النجاشي خيرُ جار

قصصُ الجوارِ الرَّائعةِ تملأُ أسماعَ التاريخ في عَصْر النُّبـوة ، وكُلُّهـا ينضـحُ بـأريـجِ فضـائـلِ المكـارمِ ومكـارمِ الفضائل ، وفي هذا الفصلِ المبارك ، سنعيشُ أجواءَ قصةٍ ميمونةٍ عبقتْ بها أسماعُ الدُّنيا ، وملأت وجدانَ الصَّحابة المهاجرين إلىٰ الحبشة بمعانيَ عِظام ، يتوّجها حسنُ جوارِ النجاشي ملكِ الحبشةِ لهم .

ـ ولعلَّ القارىءَ الكريمَ يعرفُ قصة هجرة المسلمين إلىٰ الحبشة ، إلا أنّني هنا أرسمُ مشاعري علىٰ هذه الصّفحات ، كيما يدرك القراء جميعاً ماهيّة الجوار عند الذين عرفوا أنوارَ الحقّ ، فاتبعوا الحقّ ، وآمنوا به ، وهاجروا من أجله ، فكان

جزاء هجرتهم أن أحسن النجاشي مثواهم ، ونعموا بحسنِ جواره ، وحمدوه ، وسيظلُّ أريجُ حُسْنِ جواره تتحلىٰ به الأفواهُ والأسماعُ إلىٰ أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها .

ـ ولنبدأ قصةَ الهجرة كما جاءت في المصادر الوثيقة مع التصرف بها قليلاً والاختصار المفيد .

ـ كان السَّابقون الأوّلون إلىٰ دوحةِ الإسلامِ في مكة المكرمةِ منْ عليةِ قريش ، ومن زينة شباب بيوتاتها ، لهم مكانتهم في قريش وفي عشائرهم[1] ، ولذلك طارتْ أدمغةُ قريشٍ شعاعاً في رؤوسهم ، وغاظهم بل آلمهم إسلامُ هذه

---

(١) منَ الأخطاءِ الشائعةِ في ديوانِ السيرةِ النبوية ما شاع بين الناس من أنَّ المستضعفين منَ الناسِ والعبيد ، هم أوّل الناس إسلاماً ؛ ولكنَّ حقائقَ السيرةِ النبوية تخالفُ تلكم الشائعة ؛ فأبو بكر الصِّديق ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعثمان بن عفان ، وخديجة أم المؤمنين ، وأسماء بنت أبي بكر الصديق ، وأم الفضل زوج العباس وأمثالهم ، كانوا من السابقين ومن علية القوم . وهذا لا يمنع أن يكون بلال وغيره من السابقين .

الصفوةِ المباركةِ منْ شبابها وشاباتها ، وعلية بيوتاتهم ، لذلك بدأتْ فدائحُ البلاء والمحنْ تتوالىٰ علىٰ أولئك الصّفوة ، وطارتْ وتبخرت رحمة الأبوة ، وشفقة البُنوّة ، ومحبّة الأخوة من أكباد أجلاف قريش ، طلباً لمرضاة آلهتهم المزعومة ، لعلها ترضى - بزعمهم - عنهم إذا ما أذاقوا أقرباءهم وجيرانهم المؤمنين ألوان العذاب ، وألوان الجفاء ، وسوء الجوار .

- وغضَّ المؤمنون طرفهم عن سفاهةِ السُّفهاء ، وأغمضوا أعينُهم عن قذىٰ قسوةِ الأمهاتِ والآباءِ ، وصبروا علىٰ ألوان الضَّيم ، وسوء الاعتداء ، حتىٰ يقضي اللهُ أمراً كان مفعولاً ، ويأتي بالفرج من عنده .

- ولمعتْ بارقةُ الفرجِ منْ أفقِ الغيب ، فإذا بالحبيب المصطفىٰ ﷺ يشيرُ علىٰ أصحابهِ بالهجرةِ إلىٰ أرضِ الحبشةِ ، حيثُ فيها مَلِكٌ لا يُظلمُ عنده أحد ، وخرج المسلمون إلىٰ الحبشة ، وهناك أقاموا بخير دار عند خير جار ، وهم آمنون من أذىٰ قريش .

ـ ولكن قريشاً ساءها حسنُ جوار النجاشي لأبنائها ، فطاشتْ أحلامها ، فبعثتْ وفداً منْ عندها برئاسة عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص كي يردّا المهاجرين إلىٰ بلادهم .

ـ ولما مَثُلَ هذان الرّجُلان أمام النجاشي ، وكلّماه في أمرِ المهاجرين ، وأنَّهم شقُّوا عصا الطاعة ، وخرجوا عن الجماعة ، وفارقوا دِيْن قومهم وعابوا آلهتهم ، ـ وكانا قد قدّما هدايا إلىٰ بطارقة النجاشي ـ فقال البطارقة : صدقا أيها الملك ، فإنَّ قومَهم أعلمُ بما فعلوا فأسْلِمهم إليهما .

ـ وهنا انتفض النجاشي ، كما ينتفضُ العصفورُ بلَّلهُ القَطْرُ ، وغضبَ غضباً شديداً ، لأنَّهم يأمرونه بالإساءةِ إلىٰ الذين اختاروا جواره وقال : لاها الله ، لا أسلمهم إليهما ، ولا يُكادُ قومٌ جاوروني ، ونزلوا بلادي ، واختاروني علىٰ مَنْ سواي. ، حتىٰ أدعوهم فأسألهم عمّا يقول هذان في أمرهم ، فإنْ كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلىٰ قومهم ، وإنْ كانوا علىٰ غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنتُ جوارهم ما جاوروني .

ـ وأحضر النجاشيُّ المسلمين وسألهم ، وكلمه جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ كلاماً من وحي التنزيل ، فتنزّلَتْ قطراتُ الرحمةِ علىٰ قلب النجاشي ، وسُرَّ عندما أخبره جعفر أنَّهم رغبوا بجواره فقال : لما قهرنا قومنا وظلمونا ، وضيّقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلىٰ بلادك واخترناك علىٰ مَنْ سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نُظْلَم عندك أيُّها الملك .

ـ ثُمَّ قرأَ عليه صَدْرَ سورة مريم ، وهناك قال النجاشي ؛ وأنسام الإيمان تنبعثُ من كلماتهِ ؛ وكانتْ عيناه وأعينُ مَنْ معه منَ الرّهبان تفيضُ بدمع اليقين[1] بأنَّ ما سمعوه منْ فصيح ومليح ومُتكلِّم المهاجرين جعفراً إنما يخرجُ من مشكاةِ النبوة ومن مشكاة عيسى عليه السلام :

---

(١) لقد استجابَ النجاشي وأحباره ورهبانه لكلمة الحق ، وفاضتْ أعينهم بالدّمع ممّا سمعوا من الحقّ ، وأنزل الله فيهم قرآناً يتلىٰ : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ [المائدة : ٨٢] .

إنَّ هذا والذي جاء به عيسىٰ ليخرج من مشكاةٍ واحدة .

ـ ثُمَّ قال لمبعوثي قريش : انطلقا ، فلا واللهِ لا أسلمهم إليكما ، ولا يُكَادون .

ـ وحاول الرّجلان مرّةً أخرىٰ أنْ يوقعا بالمهاجرين ، لكن الله كان لهما بالمرصاد ، وخرجا من عند النجاشي مقبوحين ، مذمومين ، مدحورين مردوداً عليهما ما جاءا به من هدايا ، وأقام المسلمون ـ كما قالت أمّنا أم سلمة رضي الله عنها ـ : وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جار[1] .

---

(١) هذه القصةُ من حديثٍ طويل رواه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢٩٠) ، و (١/ ٢٠٢ و ٢٩٢) ، من طريق ابن إسحاق بسندٍ صحيح عن زوج رسول الله ﷺ أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها .

وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٤ـ٢٧) : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق ، وقد صرح بالسَّماع ؛ وأخرجه ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٣٤٤) ؛ وأبو نعيم في الحلية (١/ ١١٥) .

ـ وهكذا أحسنَ النَّجاشي جوار المؤمنين ، وظلوا عنده حيناً منَ الدّهر ، حتىٰ قدموا علىٰ رسول الله ﷺ عقبَ غزاةِ خيبرَ في سنةِ سَبْعٍ من الهجرة .

ـ وكانَ من بركات هذا الجوار الميمون أن أسلم النَّجاشي[1] ، وصدّق بنبوة الحبيب المصطفىٰ رسول الله ﷺ ، ولما مات صلّىٰ عليه النبيُّ صلاة الغائب .

---

(١) جاء عن عطاء بن أبي رباح ـ رحمه الله ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « اتخذوا السُّودان فإنَّ ثلاثةً منهم من ساداتِ أهلِ الجنة : لقمان الحكيم ، والنّجاشي ، وبلال المؤذن » . قال الطبراني : أراد الحبش . انظر : (فتح البيان في مقاصد القرآن ٧/ ٢٨١) ، وكشف الخفاء (١/ ٣٦) ؛ وفي رواية : « خير السودان ثلاثة : لقمان ، وبلال ، ومهجع » (كشف الخفاء ١/ ٤٧٣) . وقد نظم بعض الفضلاء ذلك بقوله :

سادةُ السودان أربع ... هكذا قال المُشَفّع
النجاشي وبلال ... ثم لقمان ومهجع

(كشف الخفاء ١/ ٤٧٤) .

ـ روي في الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ نعىٰ النجاشي في اليوم الذي ماتَ فيهِ ، وخرج بهم إلىٰ المصلىٰ ، فصفَّ بهم ، وكبر أربع تكبيرات .

ـ وكان النجاشي يسمىٰ « أصحمة » ، فقد روىٰ البخاري عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ حين مات النجاشي : « ماتَ اليومَ رجلٌ صالحٌ ، فقوموا فصلُّوا علىٰ أخيكم أصحمة » . وروي هذا عن غير واحدٍ منَ الصحابة[1] .

ـ هذا وقد استدلَّ بما صحَّ من صلاةِ النَّبيِّ والمسلمين علىٰ أصحمةَ النّجاشي علىٰ جوازِ الصلاةِ علىٰ الغائبِ ، وإلىٰ هذا ذهبَ جمهورُ الفقهاءِ سَلفاً وخَلفاً ، وصارَ شرعاً متّبعاً إلىٰ يوم القيامةِ .

* * *

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٣/ ٧٧) وانظر كذلك صحيحي البخاري ومسلم كتاب الجنائز .

الفصلُ الثاني

النبيُّ ﷺ جارُ أبي أيوب الأنصاري

ـ لئن كان أبو أيّوب الأنصاري وزوجُه أمُّ أيوب من أسبق السُّبَّقِ من الأنصارِ إلىٰ الإيمانِ باللهِ ودعوةِ رسولهِ ، لقد كانا ممن حظيا بجوار رسول الله ﷺ عندما هاجرَ إلىٰ المدينةِ المنورةِ ، ونزل ضيفاً عليهما .

ـ وفي المدينةِ المنورةِ استقبلَ الأنصارُ رسولَ الله ﷺ وصاحبَه أبا بكر استقبالاً زاهراً مفعماً بالإيمان ، وبحبّه ﷺ ، فلم يسمعِ التاريخ ، بل لم يُسْمعِ التاريخُ أن استُقْبِل أحدٌ بمثلِ ما استُقبل به الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ في هجرتهِ إلىٰ المدينةِ المنورةِ ، فكان ﷺ كلّما مرّ بقبيلة من قبائل الأنصار ، تضرعوا إليه وهم آخذون بزمام ناقتهِ أنْ يبقىٰ بجوارهم حيثُ العددُ والعدّة والمنعة والثروة ، فكانَ الحبيب المصطفىٰ ﷺ

يدعو لهم ويقول : « خلّوا سبيلها فإنَّها مأمورة » . وكلما مرَّتْ بدارٍ من دُور الأنصارِ تنهضُ أشرافها ورؤساؤهم لاستقبال الحبيب الأعظم صلواتُ ربّي وسلامه عليه ، وسؤاله في ضراعةِ الحبِّ والفداء أنْ ينزل فيهم ، فيدعو لهم بخير ، حتى بلغت ناقتُه دار بني مالك بن النجار ، حيثُ المكانُ المطهّر الذي اختاره الله عَزَّ وجَلَّ ليكون مسجداً تشعُّ منه أنوارُ الهدايةِ علىٰ الدُّنيا علْماً وعَمَلاً وحيثُ المكانُ الأطهرُ الذي اختاره اللهُ عَزَّ وجَلَّ مستقرّاً لرسولهِ في حياتهِ ، ومثوىٰ لجسدهِ الشريفِ بعد انتقاله إلىٰ الرَّفيق الأعلىٰ .

ـ قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ : وقد كان في المدينة دور كثيرة ، تبلغُ تسعاً ، كل دار محلّة مستقلّة بمساكنها ونخيلها وزروعها وأهلها ، كل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلتهم ، وهي كالقرىٰ المتلاصقةِ ، فاختار الله لرسوله ﷺ دار مالك بن النّجار[1] .

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٢٠١) .

ـ ولما بركتْ ناقتهُ ﷺ في مكان مسجده ، نزل عنها وسأل : « أي بيوت أهلنا أقرب »؟!

فقال أبو أيّوب : أنا يا رسول الله ، هذه داري ، وهذا بابي .

ونقل رحْل الحبيب الأعظم ﷺ إلىٰ منزل أبي أيوب وأمّ أيّوب ، ثم قال له رسول الله ﷺ : « فانطلق فهيئ لنا مقيلاً » .

فذهب وهيأ المقيل ، ثم جاء فقال له ولأبي بكر : قد هيأتُ مقيلاً ، قوما على بركةِ اللهِ فقيلا .

ـ وروي أنَّ أبا أيوب أتاهُ فقال : يا رسول الله ، إنَّ منزلي أقربُ المنازل إليك ، فانقُل رحلك إليّ ، فقال رسول اللهِ ﷺ : « نعم » ، فذهب أبو أيوب برحل رسول الله ﷺ إلىٰ منزلهِ ، ثم جاءَ رجلٌ فقال : يا رسولَ اللهِ أينَ تحلّ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ الرجلَ مع رحله حيث كان » .

ـ إنَّ نزولَ الرَّسولِ الكريم ﷺ في دار أبي أيوب الأنصاري بأمر اللهِ تعالىٰ منقبة عظيمة لأبي أيوب خالدِ بن زيد النَّجاريّ

تُضاف إلىٰ مناقبِ الأنصار عامة ، وإلىٰ مفاخر بني النَّجار خاصة ؛ ولقد أصابَ السُّبكي ـ رحمه الله ـ عندما قال مخاطباً النبي ﷺ :

نزلتَ علىٰ قومٍ بأيمن طائرٍ لأنّـك ميمـونُ السَّنـا والنَّقيبـةِ
فيـا لبني النَّجـارِ مـن شـرفٍ بـهِ يجرّون أذيالَ المعالي الشّريفةِ

ـ نعم ، لقد بدأتْ نفحاتُ الجوارِ الطَّيِّب تنبعث من دور الأنصار ، حيث احتفوا بالجار الكريمِ ، الرؤوف الرحيم ، حبيبنا الأعظمِ محمدٍ ﷺ ، وأكرمْ به من جار! ويا حبذا محمدٌ من جار! وهناك راحتْ راحاتُ الأنصارِ نساءً ورجالاً تجودُ بما لديها من هدايا وطعام لهذا الجارِ الميمونِ الذي بارَكَ اللهُ به المدينة فغدتْ منوّرة به .

ـ فعن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال : أوّلُ هدية أهديتْ إلىٰ رسول اللهِ ﷺ حين نزل دارَ أبي أيوب أنا جئتُ بها ، قصعة فيها خبز مثرود بلبن وسمن ، فقلت : أرسلتْ بهذه القصعة أمي[1] ، فقال ﷺ : « بارَكَ الله فيك » ، ودعا

---

(١) اسم أمّ سيدنا زيد بن ثابت هو : النّوار بنت مالك بن صرمة =

أصحابه فأكلوا ؛ ثُمَّ جاءتْ قصعة سعد بن عبادة : ثريد وعراق لحم ، وما كان من ليلةٍ إلا وعلىٰ باب رسولِ الله ﷺ الثلاثة والأربعة يحملون الطعام يتناوبون : وما كانت تخطئه ـ ﷺ ـ جفنة سعد بن عبادة وجفنة أسعد بن زرارة كل ليلة ، إلا أن زيداً وأمَّه قد حازا قصب السَّبْق في هذا المضمار الكريم .

ـ وأقام الرَّسولُ ﷺ في منزل أبي أيوب ، وبعث فأحضرَ أهلَه من مكة ، وكان أبو أيوب وزوجه يحسنا جوار الحبيب المصطفىٰ ﷺ إلىٰ أن حدثتْ إحدىٰ اللطائف التي تفصح عن أدب أبي أيوب الأنصاري ، ترىٰ ما هذه اللطيفة في هذا الجوار؟!

ـ من لطائفِ الأدب التربوي ، وصور الحبّ الصريح للحبيب الأعظم محمد ﷺ ما روي عن أبي أيوب رضي الله

= الأنصارية النجارية ، وللمزيد من أخبارها الحِسَان ، اقرأ كتابنا « نساء من عصر النبوة » (١/ ٢٩١ـ٢٩٨) ففي سيرتها نفحاتٌ رائعة من حسنِ الجوارِ للحبيب الأعظم ﷺ .

عنه ، حيث قال يصور ما وقع له ولأهل بيته في غمرةِ الحبّ ، ولهفةِ الرغبةِ في الفوزِ بجوارِ رسول الله ﷺ ونزوله عنده في داره من سَهْوةٍ حدثتْ معه لم تكن تمرّ وقائعها بخاطره ، فقال : لما نزلَ عليَّ رسولُ اللهِ ﷺ في بيتي ، نزلَ في السُّفل ، وأنا وأم أيّوب في العلو ، فقلتُ له : بأبي وأمي أنتَ يا رسول الله ، إني أكره وأعظم أنْ أكونَ فوقك ، وتكون تحتي ، فاظهرْ أنت ، فكن في العلو ، وننزلُ نحنُ فنكون في السُّفل ، فقال ﷺ : « يا أبا أيوب إن أرفق بنا ، وبمن يغشانا أن أكون في سفل البيت » . فكان رسولُ الله ﷺ في سفلِ البيت ، وكنّا فوقه في المسكن ، فلما خلوتُ إلىٰ أم أيّوب قلتُ لها : رسول الله ﷺ أحقُّ بالعلو منّا ، تنزل عليه الملائكة ، وينزل عليه الوحي ، فما بتُّ الليلة لا أنا ، ولا أمّ أيوب .

- وفي بعض الرِّوايات : أنَّ أبا أيوب تنبّه ليلاً فقال : نمشي فوق رسول الله ﷺ ، فتحول فباتَ في جانب ، قال أبو أيوب : فلما أصبحت قلت : يا رسول الله ، ما بتُّ لا أنا ولا

أمّ أيوب ، قال رسول الله ﷺ : « لِمَ يا أبا أيوب »؟!

قال : كنتَ أحق بالعلو منّا ، تنزلُ عليك الملائكةُ ، وينزلُ عليكَ الوحيُ ، لا ؛ والذي بعثكَ بالحقّ لا أعلو سقيفة أنتَ تحتها أبداً ، فلم يزل أبو أيوب يتضرع إلىٰ رسول الله ﷺ حتّىٰ تحوَّل إلىٰ العلو ، ونزلَ أبو أيّوب وأهله في السُّفل .

ـ ويقول أبو أيوب في تصويرِ أدبِ الحبّ ، وتقديسِ النبوة : فلقد انكسر لنا حبٌّ لنا فيه ماءٌ ، فقمتُ أنا وأمّ أيوب لقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ، ننشّفُ بها الماء ، تخوفاً أنْ يقطرَ علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ منه شيءٌ فيؤذيَه .

ـ إنَّ هذه اللطائف الهامسة الآسرة تصوّرُ مدىٰ احترام جوارِ الحبيبِ الأعظم ﷺ ، ومدىٰ عِظَمِ الحبّ الذي يكنّه أبو أيوب والأنصار لرسول الله ﷺ إيماناً منهم بأنَّ حبّه لبُّ الإيمانِ وذروةُ التّوقيرِ ، وعنوانُ اليقين .

ـ ومنْ لطائف حسن جوار أبي أيوب واحترامه للجار المبارك سيدنا رسول الله ﷺ ، أنَّه كان يتحين آثاره ﷺ التماساً لبركاته ، فقد روىٰ الحاكم وغيره أنَّ أبا أيّوب ـ رضي الله عنه ـ

قال : كنّا نصنعُ لرسولِ اللهِ ﷺ العشاء ، ثم نبعثُ به إليه ، فإذا ردَّ علينا فضله ، تيممتُ أنا وأمُّ أيوب موضع يده ، نبتغي البركة بذلك ، حتىٰ بعثنا إليه بعشائه وقد جعلنا فيه بَصَلاً أو ثوماً ، فردّه ولم أرَ ليدهِ فيه أثراً فجئتهُ فَزِعاً ، فقلت : بأبي أنتَ وأمّي ، رددتَ عشاءك ولم أرَ فيه موضعَ يدك؟!

فقال : « إني وجدتُ فيه ريحَ هذهِ الشجرة ، وأنا رجلٌ أناجىٰ ، فأمّا أنتم فكلوه »[1] .

ـ لقد ضربَ أبو أيوب وزوجهُ والأنصار جميعهم مثلاً عليا بحسنِ الجوار ، وإكرامِ الجار ، ومواساة إخوانهم المهاجرين ، وإحسان جوارهم ، فحظوا بالإكرام من العزيز الغفار .

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٣/ ١٩٩) ؛ وللحديث أصل في الصحيحين ، إذ أخرجه البخاري في صفة الصلاة (٢/ ٢٨٢و٢٨٣) ؛ ومسلم في المساجد برقم (٥٦٤) ؛ وفي الأشربة برقم (٢٠٥٣) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه .

ـ أما دار أبي أيوب التي حظيتْ بالشّرف الرفيع ، بل بعنوان الشّرف الوافي ، فقد صارت بعد وفاة أبي أيوب إلىٰ أفلحَ مولاه ، ثُمَّ اشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار ، وأصلح ما وهىٰ من بنيانها ، ثم وهبها لأهل بيت فقراء . ولا تزال الدار المباركة ، دار أبي أيوب بالقرب من المسجد النبوي بالمدينة المنورة إلىٰ هذه الأيام ، فرضي الله عن أبي أيوب ، وجعله في جنّات ونعيم .

* * *

الباب الخامس

من قصص الجار السيء في عصر النبوة

الفصل الأول: سوءُ جوار اليهود في المدينة

الفصل الثاني: سوءُ جوار يهود بني قينقاع

الفصل الثالث: سوءُ جوار يهود بني النضير

الفصل الرابع: سوءُ جوار يهود بني قريظة

الفصل الخامس: سوءُ جوار أبي لهب وعقبة بن أبي معيط

الفصل الأول

سُوءُ جِوَارِ اليهود في المدينةِ

لما قدم النبي ﷺ المدينة ، كان فيها من أحياء اليهود : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وكان يسكنُ بجوارهم قبيلتا الأوس والخزرج ، وكانوا يسيؤون جوارهم ، ويبذرون بينهم العداوة والشَّرّ ، ولم يُسْلِمْ من اليهود سوىٰ قليل من مثل : عبد الله بن سلام ، وأهله ، وعمّته ، ومخيريق الذي قالَ النبي ﷺ في حقه : « مخيريق خير يهود »[1] .

ـ ولما استقرَّ رسول الله ﷺ في المدينةِ المنوَّرة ، كتبَ ميثاقاً وهدنةً معهم ؛ وكان هذا الميثاق يتناول تنظيم العلاقة بين المسلمين عامّة وبين اليهود ، حيث إنَّهم يعيشون ضمنَ

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٣/ ٢٣٦و٢٣٧) .

تجمّعات المسلمين ، ولكنهم متميزون في دورهم وتجمعاتهم بعيداً عن المسلمين ، ولكنْ بجوارهم . وكان من جملة بنود الميثاق المحافظة علىٰ الجوار ، وأنَّ اللهَ جارٌ لمن برَّ واتّقىٰ[1] .

ـ ولكنَّ اليهودَ بثالوثهم الخبيث : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ؛ خانوا الجوار ، ولم يرعوا حرمة الجار ، ونقضوا الميثاق ، وقابلوا هذا الإحسانَ بالإساءة ، وحاربوا الدعوة الإسلامية بأساليبهم الخبيثة ، وهمّوا بقتل النبي ﷺ وهو بدارهم لولا أنْ عصمه الله منهم ، وحاولوا طعن المسلمين في ظهورهم ، وكانت حياتُهم في المدينة وما جاورها سلسلةً منَ المخازي والغدر والخيانة وسوء الجوار ، فما كان من رسولِ اللهِ ﷺ إلا أنْ وقف منهم موقفاً حازماً ، وأجلاهم عن المدينة ، واستراحَ وأراحَ من شرورهم ، وقتل من يستحق القتل منهم ، وسنرىٰ في الصفحات الآتيات سوء جوار كل قبيلة منهم .

---

(١) انظر : تهذيب سيرة ابن هشام (ص١٢٦) .

الفصل الثاني

سوءُ جوارِ يهود بني قينقاع

ـ بعد أنِ انتصرَ المسلمونَ في غزاة بدر ، برزَ الحقدُ في نفوس اليهود ، وتمادوا في الغي ، وقال يهودُ بني قينقاع للرسول ﷺ : يا محمد ، لا يغرنّك أنّك لقيتَ قوماً لا عِلْمَ لهم بالحروب ، فأصبتَ منهم فرصة ، أما واللهِ لئن حاربناك لتعلمنَّ أنا نحنُ النّاس .

ـ وقلبَ يهودُ بني قينقاع ظهر المجن ، ولم يبالوا بالقيم الخلقية ، ولا التقاليد العربية ، ولم يحسنوا الجوار ، بل عبثوا بالشّرف والكرامة .

ـ قال ابنُ هشام ـ رحمه الله ـ في السّيرة ما مفاده : كان من أمْرِ بني قينقاعَ أنَّ امرأةً منَ العرب قدمتْ بجَلَبٍ لها ، فباعته

بسوق بني قينقاع ، ثُمَّ جلستْ إلىٰ صائغٍ هناك منهم ، فجعلوا يريدونَها علىٰ كشفِ وجهها ، فأبتْ ، فعمد الصَّائغُ اليهوديُّ الخبيثُ إلىٰ عملٍ مشين ، حيثُ عقدَ طرفَ ثوبها إلىٰ ظهرها وهي لا تشعرُ بما صنعَ ، فلما قامت انكشفتْ سوأتها ، فضحكوا منها ، فصاحتْ واستغاثت ، فوثبَ رجلٌ من المسلمين علىٰ الصائغ اليهودي الخبيث الغدّار فقتله ، وتجمّع اليهودُ علىٰ المسلم ، وشدّوا عليه فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين فغضب المسلمون ، ووقع الشرُّ بينهم وبين بني قينقاع .

ـ لذلك لم يَجِدْ النبيُّ ﷺ بداً من غزوهم ، وقد أساؤوا الجوار ، ونقضوا العهد بهذه الفعلة النكراء الشوهاء الخرقاء ، وأخبرهم بنقض العهد ، ثم حاصرهم خمس عشرة ليلة ، نزلوا بعدها على حكم الله ورسوله ، وكان لهم حليفان : عبادة بن الصَّامت ـ رضي الله عنه ـ ؛ وعبد الله بن أُبيّ ابن سلول زعيم وكبير ورئيس ورأس المنافقين ، فأما عبادة فقد تبرأ إلىٰ الله ورسولهِ منهم وقال : يا رسول الله ، أتولىٰ الله

ورسوله ، وأبرأُ منْ حلفِ هؤلاء الكفّار وولايتهم .

ـ وأما ابن أبيّ ابن سلول فقال : يا محمد ، أحسنْ في موالي ، وألحَّ علىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ قبل بشرط أنْ يخرجوا مِنْ جوارهم منَ المدينة ولهم النّساء والذرية ، وللمسلمين الأموال ، وأمهلهم ثلاث ليال ، فذهبوا إلىٰ أذرعات علىٰ حدود الشَّام .

ـ وبذلك أزالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عن المسلمين شرَّ إحدىٰ دعائم الشرِّ الثلاث من اليهود ، وكان ذلك في أوائل سنة ثلاث من الهجرة النبوية . وقيل : في شوال سنة اثنتين من الهجرة .

* * *

الفصل الثالثُ

سوءُ جوار يهود بني النَّضير

ـ لم يكن يهودُ بني النَّضير أفضلَ من يهود بني قينقاع ، بل كانوا أشدَّ غدراً ، ولم يفُوا الجوارَ حقّه ، ولم يفوا بالعهد ، وزادوا في سوء جوارهم أن همّوا بقتل النبي ﷺ عندما خرجَ إليهم يستعينُهم في دِيَةِ رجُلينِ قُتلا بالخطأ علىٰ يدِ عمرو بن أميّة الضمري ، وكان مع رسول الله ﷺ جماعةٌ من أصحابه دونَ العشرة ، فلما جاءهم أظهروا له حسن الاستعداد لإجابته وقالوا نفعل ، فاجلس حتىٰ نطعمك .

ـ ثم إنَّ هؤلاء الأخابثَ خلا بعضُهم إلىٰ بعض وقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل علىٰ مثل هذه الحالة ـ وكان رسول الله ﷺ جالساً مستنداً إلىٰ جنبِ جدار لهم ـ فَمَنْ رجلٌ

يعلو علىٰ هذا البيتِ ، فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه؟ فانتدب لذلك الشَّقي الحقود الخبيث : عمرو بن جحّاش وقال : أنا لذلك .

ـ وصَعِدَ الشقي الخبيث عمرو بن جحاش ليلقيَ الصخرة ، وأشرف بها ، فأتىٰ رسولُ الله ﷺ الوحي ، وأخبره بما همَّ القومُ المجرمون ، وما أرادوا منَ الغدر ، فقام ﷺ سريعاً ، ومضىٰ راجعاً إلىٰ المدينة ، فلما أبطأ لَحِقَ بهِ أصحابه ، فأخبرهم بما كانتْ يهودُ بني النضير قد اعتزمته منَ الغدرِ به وبهم .

ـ وبعثَ رسولُ الله ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاري يطلب إليهم الخروجَ من جواره بالمدينة ، وأمهلهم عشرة أيام ، وإلا حاق بهم الهلاك ، فتحيّروا بأمرهم ، وسُقط في أيديهم ، فجاءتهم رسُلُ أهلِ النّفاق ابن أبي وأتباعه أن اثبتوا وتمنعوا ، فلن نسلمَكم ، فبعثوا إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ أنهم لا يخرجون ، فسار إليهم ﷺ حتىٰ نزل بدارهم ، وحاصرهم خمس عشرة ليلة ، وقطعَ نخلهم وأمر بحرقها ، فملأ الرعب قلوبهم ،

واشتدّ الحصارُ عليهم ، ولم تمنعهم حصونهم منْ سوءِ المصير ، فسألوا النبي ﷺ أنْ يجليهم ويؤمنهم علىٰ دمائهم علىٰ أنَّ لهم ما حملتِ الإبلُ منْ أموالهم إلا السلاح .

فصالحهم رسول الله ﷺ علىٰ الجلاء ، وخرجوا وتركوا وراءهم مغانم كثيرة ، وأنزل الله سورة الحشر ، وخرج بعضُهم إلىٰ خيبر ، وبعضهم ذهبَ إلىٰ أذرعات بالشّام .

ـ وبإجلاء يهود بني النّضير أراحَ اللهُ المسلمينَ منْ ثاني دعائم الشر والآثام والفتن ؛ وكان جلاء يهود بني النّضير في شهر ربيع الأول من السّنةِ الرابعة من الهجرة النبوية بعيد غزاة أحد .

* * *

الفصل الرابع

سوءُ جوارِ يهود بني قريظة

ـ من الملاحظ أنَّ نهايةَ يهود بني قينقاع كانت بعد غزاة بدر ، وأن نهايةَ يهود بني النّضير كانت بعد غزاة أحد ، وأنَّ نهاية يهود بني قريظة كانت بُعيد غزاة الخندق .

ـ فكيف كانت نهايةُ هؤلاء الأخابث ، والذي فعلوه من سوء الجوار حتىٰ كانت نهايتُهم منْ أسوأ النهايات ، لأنَّ غدرهم كان أعظم الغَدْر ، وسوء جوارهم للمسلمين يمثّل أسوأ جوار عرفه تاريخهم ؛ وكان الدور الأكبر في سوء هذا الجوار لزعيم اليهود حُيي بن أخطب النَّضري الذي أقبل في جماعة من بني النَّضير ، وألَّبوا العربَ علىٰ محاربةِ رسولِ الله ﷺ بالمدينةِ حتىٰ كانت غزاة الخندق ، وأنَّهم سعوا

إلىٰ بني قريظة ـ والمشركون يحاصرون المدينة ـ أن ينقضوا ما بينهم وبين النبي ﷺ ، ولا يجعلوا لهذا الجار حرمة ولا مكانة ، ونجحوا بادىء الأمر في ذلك حتىٰ اشتدَّ الكرب علىٰ المسلمين ، وأضحوا بين نارين : نار المشركين من حول المدينة ؛ ونار يهود بني قريظة من داخل المدينة ، حتىٰ إن النبي ﷺ قد اضطر إلىٰ أنْ يرسلَ بعضَ أصحابه لحراسة النساء والذراري من غدر اليهود بعد أنْ نقضوا العهد .

ـ ولما عاد النبي ﷺ مِنَ الخندق بعد أنْ هزمَ اللهُ جموعَ الأحزاب ، جاء جبريل عليه السلام ، فقال : أوضعتَ السِّلاح يا رسول الله؟

قال : « نعم » .

فقال جبريل : ما وضعنا السِّلاح ، وإنَّ الله يأمرك بالمسيرِ إلىٰ بني قريظة ، فإني عامدٌ إليهم ، فمزلزل بهم ؛ فأمر رسولُ اللهِ ﷺ منادياً ينادي في الناس : « ألا لا يصلينَّ أحد العصر إلا في بني قريظة » .

ـ وخرج رسولُ الله ﷺ وراءهم فيمن بقي منَ الصحابة ،

وحاصرَ بني قريظة خمساً وعشرين ليلة حتىٰ اشتدَّ بهم الحال ، ولم يروا فائدة من تحصّنهم ، وأنهم لا ناصر لهم من دون اللهِ ، عرضوا علىٰ رسول الله ﷺ أن يعاملهم معاملة بني النّضير ، فأبىٰ إلا أنْ ينزلوا علىٰ حكمه ، ومن ثُمَّ اختاروا حليفهم سعد بن معاذ الأنصاري الأوسي ـ وكان في خيمة في المسجد النبوي يُعالج بسبب سهم أُصيب بهِ في الخندق ـ وجيء بسعد ـ رضي الله عنه ـ راكباً ، فقال له جماعة من الأوس : أحْسِنْ في مواليك ، فقال لهم : لقد آن لسعد ألا تأخذه في اللهِ لومة لائم ، ثم قال : فإني أحكم فيهم أن تقتلوا الرجال ، وتسبُوا النّساء والذرية ، فقال له رسول الله ﷺ : « لقد حكمت فيهم يا سعد بحكم اللهِ من فوقِ سبعِ سموات » . ونُفِّذَ فيهم الحكم ، وفي مقدمتهم حيي بن أخطب ، وأكابر فجار اليهود .

ـ وبالقضاءِ علىٰ بني قريظة ، تخلّص المسلمون من آخر الشّرور والآثام ، وأمنَ المسلمون غَدْرَ وفسادَ جوار اليهود ، وأصبحتِ المدينةُ كلّها علىٰ قلبِ رجلٍ واحدٍ ، موئل

الإسلام ، وحصنه الحصين .

ـ وفي شأن بني قريظة ، نزلتْ آياتٌ كريمة من سورة الأحزاب[1] تصوِّر سوء جوارهم ، وغدرهم ، وكيف أنَّ الله عز وجل أورثَ المسلمين أرضهم وديارهم وأموالهم ، وكان الله علىٰ كل شيء قديراً .

* * *

(١) اقرأ الآيات (٢٥ـ٢٨) من سورة الأحزاب ، مع أسباب النزول .

الفصل الخامس

سوءُ جوارِ أبي لهبٍ
وعقبة بن أبي معيط

ـ إنَّ جارَ السُّوء منَ المصائبِ الكُبرىٰ في الحياةِ الدنيا ، فكم منْ رجلٍ فاضلٍ هاجرَ وهجرَ دارَه ليفارقَ جاره ، ويكفَّ عن نفسهِ وأهلهِ بوائقَه .

ـ وفي قصصِ السيرةِ في العهدِ المكي ، نجدُ صوراً بشعةً من صور الجوار السيىء المقيت ، من اثنين من عمالقةِ الفجور والبغي والعدوان ، وهما :

ـ المتبُوب أبو لهب عبدُ العزىٰ بنُ عبدِ المطلب ؛ عمّ النبي ﷺ ، الذي كان يؤذي النبي في كل شيءٍ ، فكانَ يسيرُ وراءه ويقولُ للناس : إنَّ هذا يأمركم أنْ تتركوا دينَ آبائكم

وهذا عارٌ عليكم . ولهذا قال الحبيب المصطفىٰ ﷺ : « ما أوذي أحدٌ ما أُوذيت » .

ـ وأما الآخر : فهو أحدُ فطاحلِ الخبثاءِ الرَّعاديدِ ، الذين تفننوا في إيذاء رسول الله ﷺ في جواره ، وفي دعوته ، إنه عقبة بن أبي معيط أخزاه الله .

ـ ولم يكن هذان الشقيان : أبو لهبٍ وعقبةٌ هما اللذان يسيئان جوار النبي ﷺ ، بل ذكر ابن إسحاق سجلاً حافلاً بأسماءِ الجيرانِ الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ ، وكانوا يتواصون علىٰ أذيته فقال : وكان النفر الذين يؤذون رسولَ اللهِ ﷺ في بيته : أبا لهب ، والحكمَ بنَ العاص بنِ أمية ، وعقبةَ بنَ أبي معيط ، وعدي بن حمراء الثقفي ، وابن الأصداء الهُذلي ؛ وكانوا جيرانه .

ـ ولكنَّ هذين الخبيثين أبا لهب وعقبة ، ضربا القدح المعلىٰ في إساءةِ الجوار ، وسوءِ الإيذاءِ ، فقد كان عقبةُ يتناوبُ مع المتبوبِ أبي لهب في الإساءة لجارهم رسولِ اللهِ ﷺ ، فكان عقبةُ يعمدُ إلىٰ مِكْتَلٍ فيجعلُ فيه الأذىٰ

والغائط ، ومن ثم يضعه علىٰ باب رسول الله ﷺ .

ـ وأما أبو لهب فكان يطرح القذر والنَّتنَ علىٰ باب رسولِ اللهِ ﷺ ، وكانت زوجه أمَّ جميل معواناً له علىٰ تقديم الأذىٰ والأذية لرسول الله ﷺ ؛ فقد كانتْ تضعُ هي الأخرىٰ الأوساخَ أمام النبي ﷺ ، فيبعدها ويقول : « أيُّ جوار هذا يا بني عبد مناف »؟!

ـ لكنَّ هذهِ الحاقدةَ كانت تزدادُ غيظاً وأذيةً ، فتأخذُ الشَّوك والحسك ، وتضعه في الليلِ في طريق النبي ﷺ ليعقره ويعقرَ أصحابه ، فتوعدها الله عَزَّ وجَلَّ وزوجها بسورةٍ كاملة بنار ذات لهب ، وتكون فيها حمالة الحطب ، حيث يكون في جيدها حبل من مسد تجمعُ فيه الحطب من هنا وهناك .

ـ وتابع هذان الخبيثان رحلةَ الأذىٰ لرسولِ اللهِ ﷺ ، واستمرَّ عقبة في ضلاله وسوء جواره ، يساعده بذلك أبو لهب ؛ ولم يتوقفْ هذان اللئيمان عن إساءةِ الجوارِ يوماً واحداً ، بل كانتْ دناءةُ فجورهما تدفعهما إلىٰ إساءةِ جوارِ رسولِ الله ﷺ ، وهو صابر علىٰ أذاهما وفجورهما .

ـ أخرج ابن سعد ـ رحمه الله ـ في « طبقاته » عن أمّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ فيما روت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كنتُ بين شرّ جارين ؛ بين أبي لهب ، وعقبة بن أبي معيط ، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها علىٰ بابي ، حتىٰ إنهم ليأتون ببعض ما يطرحون من الأذىٰ ، فيطرحونه علىٰ بابي » .

قالت عائشة : فيخرج رسولُ الله ﷺ فيقول : « يا بني عبد مناف أي جوار هذا »؟! ثم يلقيه في الطريق[1] .

ـ وظلَّ هذانِ الكافرانِ الشَّقيانِ اللعينانِ يُؤذيانِ الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ ، حتىٰ هاجر إلى المدينة المنورة ؛ ولما كانتْ غزاةُ بدرٍ وقعَ عقبة بن أبي مُعيط أسيراً في أيدي المسلمين ، فحُبِسَ ، ومن ثُمَّ ضُرِبتْ عنقُه .

---

(١) انظر : طبقات ابن سعد (١/ ٢٠١) ، ومجمع الزوائد (٦/ ٢١) ؛ وانظر : السيرة الحلبية (١/ ٤٧٤و٥٠٨) والفروث : جمع الفرث : وهو بقايا الطعام في الكرش ، وهو من أسوأ ما يكون من النتن وقبح المنظر .

ـ أما أبو لهب ، فقد ماتَ بعد غزوة بدر بسبعة أيام ، وكانت نهايتهُ نهايةً بشعةً ، إذ ماتَ غيظاً وكمداً ، مات بمرضٍ يشبه الطاعون يسمىٰ « العدسة » وكانتِ العربُ تتشاءم بها كثيراً ، وبموتِ هذين الشقيين مات معهما الأذىٰ ، وانقرض سوء الجوار .

* * *

الباب السادس

الجار في حياة العرب وأدبهم

الفصل الأول : إكرام الجار

الفصل الثاني : حماية الجار

الفصل الأول

إكرام الجارِ

ـ إنَّ إكرامَ الجارِ لا يقفُ عندَ نوعٍ معينٍ من أنواعِ الإكرامِ ، لأنَّ هذهِ الأنواع تختلفُ باختلافِ الجيرانِ ، والمناسباتِ ، وحالةِ كل جار .

ـ ولإكرامِ الجارِ مكانةٌ بارزةٌ في آدابِ العرب ، وفي أشعارهم وأسمارهم ، لأنَّه يضفي خصلةً منْ خصائلِ المكارمِ إلىٰ حصائِلهم الأخلاقية التي يفخرون بها .

ـ وبلغَ بالعربِ منْ إكرامِ الجارِ ، أنْ أظهروا ضروباً من التَّضحيةِ في المال ، ويزعمون أنَّهم يهينون في سبيلِ إكرامِ جارهم ؛ ويضربُ حاتم الطائي مثلاً شروداً في هذا المجال الخصب فيقول :

إذا كانَ لي شيئانِ يا أمَّ مالكٍ فإنَّ لجاري منهما ما تخيّرا
وفي واحدٍ إنْ لم يكنْ غير واحدٍ أراهُ لـه أهـلاً إذا كـان مُقتـرا

ـ وبلغ منْ إكرام العرب جيرانهم أنَّهم خلطوهم بأنفسهم ، حتىٰ ينسىٰ الجار أنَّه غريبٌ[1] .

ولذلك لِعظمِ إكرامهم إياه ، ولاحتفائهم واحتفالهم به ، ورعايتهم إياه ، وتذكر علائم هذه المعاني في شعر يزيدِ بن حِمّان السّكوني الشيباني ، الذي يمدحُ قومه ، ويذكر مكانةَ الجار فيهم ، وإكرامهم إياه :

ومِنْ تكرُّمهم في المحْلِ أنَّهمُ لا يعلمُ الجارُ فيهم أنَّهُ الجارُ
حتَّىٰ يكونَ عزيزاً منْ نفوسهمُ أو أنْ يَبِيْنَ جميعاً وهو مختارُ
كأنَّهُ صدعٌ في رأسِ شاهقةٍ منْ دونهِ لعتاقِ الطَّيرِ أوكارُ

ـ ولعلَّ افتخارَ شعراءِ العربِ بإكرامِ الجار هو منىٰ

---

(١) وما أجمل قول الشاعر في هذا المجال وقد استخدم فنَّ المدح بما يشبه الذم :
ولا عيبَ فيهم غير أنَّ ضيوفهم تعابُ بنسيانِ الأحبّةِ والوطن

دنياهم ، ودنيا مناهم ، حيث تسيرُ الركبانُ بالحديثِ عنهم ، فهذا المثقب العبدي يحفظُ حقَّ الجارِ ، ويفخر بما يصنعُ فيقول :

أكـرِمُ الجـارَ وأرعـىٰ حقَّـه إنَّ عرفانَ الفتىٰ الحقّ كرم

ـ وأمّا سلامة بن جندل فإنَّه يرىٰ أنَّه وقومه مصدر سعادة الجار والضَّيف معاً ، وفي هذا المعنىٰ يقول :

قد يسعدُ الجارُ والضَّيفُ الغريبُ بنا والسَّائلونَ ونُغْلي مَيْسَر النِّيب[1]

ـ وإذا ما حلقنا مع شعر الأعشىٰ في أجواء الجار ، ألفيناه يوصي به خيراً ، ويقرر حقيقةً مفادُها أنَّ الجارَ لابدَّ راحلٌ ومنتقلٌ ، فليكنِ الإحسانُ إليهِ ما دام مجاوراً في القومِ ، وفي هذا يوصي فيقول :

والجارُ أوصيكمُ بالجارِ إنَّ له يوماً منَ الدَّهرِ يثنيهِ فينصرفُ[2]

---

(١) ديوان سلامة بن جندل (ص٢٢٧) .
(٢) ديوان الأعشىٰ (ص٣٥٩) .

ـ إنَّ ثمنَ إكرامِ الجار هو الذّكرُ الحسنُ ، والثَّناءُ الذي يسعىٰ إليهِ الكريم في حياته ، وبعد أن يصيرَ تحت التُّرابِ ، هذا ما وافانا به الشاعرُ عَبِيْد بن الأبرص حيث قال :

أشري البلادَ بحمدِ الجارِ أبذلهُ حتىٰ أصيرَ رميماً تحتَ ألواح[1]

ـ ويجعلُ لبيدُ بنُ ربيعةَ احترامَ الجارِ والوفاء بحقّه ديناً عظيماً يؤدّيه هو وقومه فيقول :

نـؤدّي العظيـمَ للجـوارِ ونَبْتنـي فعالاً وقَدْ ننكي العدوَّ المُسَاجلا[2]

ومن مظاهرِ إكرامِ الجار معاملتُه معاملةً رقيقة رفيقةً متوجة بلآلىء الحنان والدّفء ، وعن هذا المعنىٰ عبّر الأعشىٰ بقوله :

ولا تعدنَّ النَّاس ما لستَ منجزاً ولا تشتمن جاراً لطيفاً مصافيا[3]

---

(١) ديوانُ عبيد بن الأبرص (ص٥٥) .
(٢) ديوان لبيد بن ربيعة (ص٢٥٢) .
(٣) ديوان الأعشىٰ (ص٣٧٩) .

ـ ويفخرُ زهيرُ بنُ سلمىٰ بكفِّهِ الأذىٰ عنِ الجيرانِ فيقول :

وكفّي عن أذىٰ الجيرانِ نفسي وإعلاني لمن يبغي عَلاني[1]

ـ ويأتي مسكين الدّارمي فيما بعد ، ليعلنَ المشاركةَ التامة للجارِ ، حتىٰ في قوتِ اليومِ وطعام البيت ، وقد لا يرىٰ أنْ يكون هناك خصوصية له دون جاره ، فهما سواء فيما هو من حقّه كما أنَّه يرعىٰ حريم جاره فيقول :

ناري ونارُ الجارِ واحدةٌ وإليهِ قبلي تنزلُ القِدْرُ

ما ضرَّ جاراً لي أجاورهُ ألا يكونُ لِبابهِ ستْرُ

أعمىٰ إذا ما جارتي برزتْ حتىٰ يُغيِّبَ جارتي الخدرُ[2]

ـ ولو رحتُ أستقصي لكَ إكرامَ الجارِ في آداب العرب ، لطال بنا الطريق ، وحَسُن بنا الحديث ، ولكنا اكتفينا بقطف الثمر من ذلك السَّمَر ؛ لنسمو بأنفسنا إلىٰ مراتب الأدب والفضيلة .

---

(١) ديوان زهير (ص٣٤٩) .

(٢) ديوان مسكين الدارمي (ص ٤٥) .

ـ ويحسُنُ بنا أنْ نُوردَ ما جاءَ عنْ ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال : ثلاثةُ أخلاق كانت في الجاهلية مُسْتَحسنة ؛ والمسلمونَ أولىٰ بها :

أوّلها : لو نزلَ بهم ضيفٌ لاجتهدوا في برّه .

والثاني : لو كانت لواحدٍ منهم امرأة كبرت عنده ، لا يطلقها ، ويمسكها مخافةَ أنْ تضيعَ .

والثالث : إذا لَحِقَ بجارهم دَيْنٌ ، أو أصابه شدّةٌ أو جهد ، اجتهدوا حتىٰ يقضوا دينه ، وأخرجوه من تلك الشِّدَّة[1] .

ـ ومن محاسنِ الشّعر في هذا المجال قول أحمد بن علي الحرّاني :

والجارُ لا تذكُر كريمةَ بيتِهِ ... واغضبْ لكَلْبِ الجار إنْ هو أُغْضِبا

احفظْ أمانتَه وكنْ عزّاً له ... أبداً وعمّا ساءَه متجنّبا

---

(١) انظر كتاب : تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص ١٤٤) بتحقيق : يوسف علي بديوي . طبعة دار ابن كثير دمشق ط ٢ ١٩٩٥ م .

كـنْ ليّنـاً للجـارِ واحفـظْ حقَّـه كرماً ولا تكُ للمجاور عقربا[1]

ـ وأنشد الأصمعيُّ للمقنّع الكندي قوله :

أرىٰ دارَ جاري إنْ تغيَّبَ حقبةً عليَّ حراماً بعدَه إنْ دخلتُها
قليلٌ سؤالي جارتي عنْ شؤونها إذا غابَ ربُّ البيت عنها هجرتُها
أليسَ قبيحاً أنْ يُخَبَّر أنَّني إذا كانَ عنها شاحطَ الدار زرتُها[2]

* * *

(١) انظر : المنتقىٰ من مكارم الأخلاق للخرائطي (ص ٥٨ و ٥٩) .
(٢) المصدر السابق .

الفصل الثاني

حمايةُ الجارِ

ـ الأدبُ العربيُّ بحرٌ زاخرٌ بفضائل الآداب ، وآداب الفضائل ، ومنْ هاتيكم المكارم والآداب التي يزخر بها : الفخر بحماية الجار ؛ وعرفان حقّه وواجبه .

ـ ويعتبر العربُ أنَّ حمايةَ الجارِ مدعاةٌ للفخر ، يُرَدِّدُ ذلك في كلِّ نادٍ وواد ، وفي كلِّ مناسبة ، بل ودون مناسبة ؛ إذ الفضائل يجبُ أنْ تُنْشرَ في كل الأحايين والأوقات ، فالعربيُّ المُجير لا يَقْبلُ أنْ يُمَسَّ جاره بأدنىٰ أذىٰ ، فإذا حمىٰ جاره ، فسرعان ما ينتشرُ هذا الحدث انتشار النار في الهشيم ، فحمايةُ الجار تعني الإقدام والشجاعة والإيثار ، وقد تكون القبيلة كلُّها صفاً واحداً كأنَّها بنيانٌ مرصوصٌ في حماية الجار إذا

ما دعا الداعي لذلك ، وفي شِعْر حميد بن ثور الهلالي نجدُ فخره بقومه الذين يكون الجار عزيزاً لديهم ، فالجارُ آمنٌ وسطهم ، وبنو هلال ـ قوم حميد ـ عندما يعطون الجار عقد الجوار والحماية ، فإنهم يوفون بما عقدوا عليه ، وهم سببُ أمنهِ وأمانهِ ، وحتىٰ يؤكّدَ شجاعةَ عشيرته ، يشيرُ إلىٰ أنَّ جارهم لا يخاف الضَّيم وسط بيوتهم ، ولا يخشىٰ بطش أحدٍ ؛ فهم فوارس كرام ، جارهم يروحُ ويغدو بعقد وثيق ، وفي هذا يقول حميد :

متىٰ أدْعُ قومي يُجِبْ دعوتي ... فوارسُ هيجا كرامُ النَّسبْ

ترىٰ جارَهم آمناً وسطهم ... يروحُ بعقدٍ وثيق السَّبب

إذا ما عقدوا لـه ذمّةً ... شددنا العناجَ وعَقْدَ الكربْ[1]

ـ وأمّا عنترةُ بنُ شدَّاد ، فيربطُ بينَ عزَّة جارهِ ، وكرم نفسهِ ، فيقول :

---

(١) ديوان حميد بن ثور الهلالي (ص ٤٦) ؛ تحقيق عبد العزيز الميمني ط ١ ١٩٥١ م ـ دار الكتب المصرية .

وإنّـي عـزيـزُ الجـارِ فـي كـلّ وأكرمُ نفسي أنْ يهونَ مقامي[1]

ـ ويجمعُ عنترة لنفسه خصالاً كثيرة في محافظته علىٰ الجار ، ولعلَّ أشعاره تفصحُ عنْ فخره في هذا المضمار ، ومن ذلك حمايته للجار ، وفرحه بالضَّيف المقيم ، فيقول :

وإنّي لأحمي الجارَ من كلِّ ذلَّةٍ وأفرحُ بالضَّيفِ المقيمِ وأبهجُ[2]

ـ وإذا ما مات عنترة ، فإنَّ جيرانَه سيلقون ـ ولا شكَّ ـ الهوانَ والذُّلَّ بعد موته ؛ ففي إحدى فرائدِ أبياته منْ قصائده ، يعبِّرُ عنْ ذلك فيقول :

فوا ذلّ جيراني إذا غبتُ عنهمُ وطالَ المدىٰ ماذا يلاقونَ مِنْ بعدي[3]

ـ ويقول أيضاً معبّراً بأنَّ جارَه عزيزٌ في جواره ، وأنَّ عدوَّه ذليلٌ نادمٌ :

---

(١) ديوان عنترة (ص ١٦٥) بتحقيق كرم البستاني ـ بيروت ١٩٨٧ م .
(٢) ديوان عنترة (ص ٣٧) .
(٣) ديوان عنترة (ص ٦٢) .

ألا فليعشْ جاري عزيزاً وينثني عـدوّي ذليـلاً نـادماً يتحسَّرُ[1]

ـ ولعلَّ أبيات السَّموءل المشهورة في حمايةِ الجار ؛ تعطينا صورةً وضيئةً عن هذه المكرمة ، التي ازدانَ بها أدبنا العربي في القديم ، وهذه الأبيات من لاميته المشهورة في عالم الشِّعْر ، ومنها :

تعيّـرنـا أنّـا قليـلٌ عـديـدنـا فقلـتُ لهـا إنَّ الكـرامَ قليـلُ
ومـا ضـرّنـا أنّـا قليـلٌ وجـارنـا عـزيـزٌ وجـارُ الأكثـريـنَ ذليـلُ
لنـا جَبَـلٌ يحتلُّـه مَـنْ نجيـره منيـعٌ يـردُّ الطّـرفَ وهـو كليـلُ
تسيلُ علىٰ حدِّ السيوفِ نفوسنا وليستْ علىٰ غيرِ السّيوفِ تسيلُ
إذا مـاتَ منّـا سيِّـدٌ قـام سيِّـدٌ قـؤولٌ لما قـالَ الـرجـالُ فعـولُ
وما أخمدتْ نارٌ لنا دون طارق ولا ذمَّنا في النَّازلين نزيلُ[2]

ـ ويقول السَّموءل أيضاً في حمايةِ الجار :

---

(١) ديوان عنترة (ص ٨٢) .

(٢) انظر : حماسة أبي تمام ؛ القصيدة رقم (١٥) ؛ وبعضهم يروي هذه القصيدة لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي .

فأحمي الجارَ في الجلّىٰ فيمسي عـزيـزاً لا يُـرامُ إذا حميـتُ

ـ ولطرفةَ بنِ العبد البَكْري مجالٌ رحبٌ في حماية الجار ، حيث يعتصمُ المستجيرُ بهم إذا ما أوىٰ إلىٰ هضبتهم فيقول :

لنا هضبةٌ لا يدخلُ الذُّلُّ وسطها ويأوي إليها المستجير فيُعْصَما

ـ إنَّ ما قرأناه مِنْ أدبٍ في حمايةِ الجار عند العرب ، ليؤكد علىٰ هذه الفضيلة التي أكّدها الإسلام ، وشدَّ علىٰ أيدي النَّاس في نموها .

ـ ولعلَّ الخنساءَ في رثائِها لأخويها ، تتخذُ منْ حمايةِ الجارِ سُلَّماً تصعد فيه إلىٰ المجد ؛ لتحكي هذه المنقبة لهما كقولها :

وهـم منعـوا جـارهـم والنِّسـاء يخفرُ أحشاءها الخوف خفرا

ـ وتذكرُ أخاها معاويةَ المشهور بحماية الجار فتقول :

وجـارك محفـوظٌ منيـعٌ بنجـوةٍ منَ الضّيم لا يؤذىٰ ولا يتذللُ

ـ ولم يكن أخاها يحمي الجار فحسب ، وإنما الضيف ، والنُّزَّل أيضاً :

يُحامي عن الحيِّ يوم الحفا ظِ والجارِ والضَّيفِ والنُّزَّل

ـ ويؤكد عَبِيْد بنُ الأبرص حماية الجار فيقول :

نحمي حقيقتنا ونمنع جارنا ونلفُّ بين أرامل الأيتام

ـ وأما زهيرُ بنُ أبي سلمىٰ فيصف ممدوحيه بأنَّهم يحمون الجار ، فيقول :

المانعُ الجارَ يومَ الرّوعِ قد علموا وذو الفضول بلا مَنٍّ ولا كَدَر

ـ ويشاركُ الحطيئةُ في الثَّناء علىٰ هذه المكرمة فيقول مادحاً أيضاً :

الموثقونَ لجارِ البيتِ إنْ عقدوا ومنهم سابقُ الجلَّىٰ وداعيها

ـ ويخلِّدُ المتوكلُ الليثي هذه المكرمة ، فيتحدث عن حماية الجار وعزّته ، وها هو يقول مادحاً أحدهم بحماية الجار :

يرىٰ للضَّيف والجيرانِ حقاً ويرعىٰ في صحابتهِ الذّماما

كأنَّ الجار حينَ يحلُّ فيهم على الشُّمّ البواذخِ من شماما

ـ إنَّ الذي يقضي حقَّ الجارِ يَعِشْ سيِّداً ، يستعذبُ الناسُ

ذِكره في كلِّ مجلسٍ وناد ، وعن هذا المعنىٰ عبَّر الشّافعي ـ رحمه الله ـ بقوله :

ومَنْ يقضِ حقَّ الجارِ بعد ابن عمّه وصاحبه الأدنىٰ علىٰ القرب والبعدِ
يعش سيّداً يستعذبُ الناسُ ذكره وإنْ نابه حقٌّ أتوهُ علىٰ قصدِ

ـ إنَّ هذه المآثر الحِسان تملأُ الصُّحف والأوراق ، وتندّي القلوب بما تحمله من خصائل الخير ، وموجبات المودّة ، فما أجمل مكارم الأخلاق وخصائل الفضائل!! .

* * *

الباب السابع

الجار بين المدح والذم

الفصل الأول: مدح الجار

الفصل الثاني: ذمّ الجار

الفصل الأول

مدحُ الجارِ

لعلَّ موضوعَ مدحِ الجارِ يتغذىٰ علىٰ العاطفة ، ويتعاملُ مع لحظاتِ الأنس التي يتعرضُ لها مَنْ يكونُ جاراً إن كانَ شاعراً أو أديباً ، أو عالماً ، وإذ ذاك يرسم إحساسه في ذاكرة الزمن ، وعلىٰ فم التاريخ كي يحيكها للدنيا ، وكي تبقىٰ أنشودة نشوىٰ على شفةِ محبّي الفضائل والخصائل الحميدة علىٰ مرّ الدُّهور والأعوام .

ـ ولعلَّ من أبدعِ ما رسمتهُ يد التَّاريخ الأدبي الجميلِ ، تلكم الصُّورُ العجيبةُ النّادرةُ لامتداحِ المهاجرين إخوانَهم الأنصار الذين آووا ونصروا ، فحقّ لهم منَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في قولهِ : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ

أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1]

[الحشر : ٩] .

ـ وفي أدبنا العربي نماذج رائعة في مضمار امتداح الجار ، فمن صور المدح ، ما نراه عند النابغة الذبياني الذي يوجّه إلىٰ الجارِ عند انقضاء مدّة الجوار ، فكانتِ الذّكرىٰ الطيّبة ، وهمساتُ الإحسان تندّي جميل المحسنين من الجيران ؛ ويمدحُ النابغة عند رحيله جيراناً تركهم ، فيقول :

لا يُبْعِدُ اللهُ جيرانـاً تـركتهـمُ ... مثلَ المصابيحِ تجلو ليلة الظُّلمِ
لا يبرمون إذا ما الأفق جلّلَهُ ... بردُ الشتاء من الإمحال كالأُدمِ[2]

ـ ويمتدحُ بشر بن أبي خازم جمعاً منَ النَّاس أحسنوا الجوار فيقول :

---

(١) مَنْ أرادَ التوسع والاستزادة من هذا المجال ، فليرجع إلىٰ كتب السيرة النبوية يجد فيها مبتغاه ، وليرجع ـ إن شاء ـ إلىٰ كتابنا رجال مبشرون بالجنة يجد فيه ما يسره أيضاً بإذن الله .

(٢) ديوان النابغة الذبياني (ص ١٠١) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف بمصر .

في فتيةٍ لا يُضام الدَّهر جارُهُم همُ الحماةُ علىٰ الباقين والسَّلف

ـ ومن آثارِ العربِ الأدبيةِ في العصرِ الجاهلي في امتداحِ الجار ، ما قاله عُبَيد بن عبد العزىٰ السّلاماني :

أولئك قومٌ يأمنُ الجارُ بينهم ويشفقُ مِنْ صولاتهم كلّ مخفر
مرافيدُ للمولىٰ محاشيدُ للقرىٰ علىٰ الجار والمستأنسِ المتنوّر[1]

ـ ومن بدائع روائع آدابهم في هذا المجال قول عمرو بن أحمر الباهلي :

إذا نـزلَ الشتـاءُ بـدارِ قـومٍ تجنَّـب جـارَ بيتهـم الشتـاء

ـ وفي ديوانِ الحطيئة نجدُ تسجيلاً لمكارم الأخلاق في امتداح الجار ، ومما يُستجاد له في هذا المجال قصيدة بائية يذكر فيها المحسنين إلىٰ الجار :

ردُّوا علىٰ جارِ مولاهم بمهلكةٍ لـولا الإلهُ ولـولا فضلُهم ذهبا
لن يتركوا جارَ مولاهم بمتلفةٍ غبراءَ ثمَّتَ يَطْووا دونه السَّبا

---

(١) انظر : قصائد جاهلية نادرة (ص ١٣٢) .

ـ وعندما يصلُ إلىٰ ممدوحه يصفه بإغاثة الجار فيقول :

أخرجتَ جارهمُ منْ قعر مظلمة لو لم تغثه ثوىٰ في قعره حِقبا[1]

ـ وفي جولةٍ أخرىٰ يمتدحُ الحطيئة بني كليب بأجمل ما خلَّد ذكراهم في تاريخ امتداحِ الجار ، إذ خلع عليهم أصنافاً منَ المحامدِ ، وذكرهم بالفضل ، وكل مكارم الأخلاق ، فقال :

لعمرك ما المجاورُ في كُليب بمُقضىٰ في الجوار ولا مُضاعِ
هـم صَنـعٌ لجـارهـمُ وليسـتْ يـدُ الخـرقـاء مثـلَ يـدِ الصنـاعِ
وجـارُهـمُ إذا مـا حـلَّ فيهـم علـى أكنـافِ رابيـة يفـاع[2]

ـ وفي أشعار طفيل الغنوي وقفاتٌ آسراتٌ في امتداحِ الجار ، وقد لجأ ذات مرّة هو وجماعة من قومه إلىٰ بني كلاب ، فأسبغوا عليهم حسنَ الجوار ، وكرم الأخلاق ، وكثرة المعروف ، ثُمَّ بعدَ ذلك لحق بقومه ، وخلَّدَ مآثر بني

---

(١) ديوان الحطيئة (ص ١٢٨) .
(٢) ديوان الحطيئة (ص ١٣٧) .

كلاب بأبياتٍ طوّقهم فيها بقلادة من جمان الذِّكرِ الحميد ، مدىٰ الدهور والأزمان فقال :

جزىٰ اللهُ عنّا جَعْفراً حينَ أزلقتْ ... بِنا نَعْلُنا في الواطئينَ فزلَّتِ
همُ خلطونا بالنفوسِ وألجؤوا ... إلىٰ حجراتٍ أدفأتْ وأكنّتِ
سنجزي بإحسانِ الأيادي التي مضتْ ... لها عندنا ما كبّرتْ وأهلّتِ[1]

ـ وهذه الأبياتُ مشهورةٌ معروفةٌ لدىٰ العربِ في الجاهلية والإسلام ، حتىٰ وردَ أنَّ سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه لم يجدْ للأنصار شبهاً في إيوائهم للمهاجرين ، وإيثارهم إلا هذه الأبيات ، عندما أرادَ أنْ يذكر فَضْلَ الأنصار ، ولم يزدْ شيئاً علىٰ إنشادِ القطعة أمامهم ، عالماً بما في هذه الأبيات من مكارم الندىٰ ، وندىٰ المكارم ، وكمال الأخلاق ، وامتداح الجار وإيوائه والإحسان إليه .

* * *

---

(١) ديوان طفيل الغنوي (٩٨) .

الفصل الثاني

ذمُّ الجارِ

ـ في الفصلِ السَّابقِ ، ذكرنا نتفاً مما جاءَ في مدح الجار وامتداح الجوار ، وإتماماً للفائدة ، وإكمالاً للمتعة ، أحببنا أنْ نشفع ذلك الفصل بفصل آخر فيه ضده ، كي يحلوَ كتابنا ، ويصلح للمذاكرة ، وتعظم فائدته بإذن الله ، فمن المثير والممتع أن نقْرن ضدين في قَرَنٍ واحد :

ضـدّان لمـا استجمعـا حَسُنـا والضِّـدُّ يظهـرُ حسنـه الضِّـدُّ

ـ وما دمنا قد قرأنا وعلمنا أنَّ هناك مدحاً للجار الوفي الكريم ، فلا جرمَ أنَّ هناك ذمّاً للجار الذي لا يعرف ماهية وقيمة الجار .

ـ وفي آدابنا العربية قديمها وحديثها وقفاتٌ حلوةٌ مع ذمّ

الجار هي أقربُ إلىٰ الهجاءِ والعتابِ والانتقاص ، ومن أمثلة ذلك في ذمّ الجيران المتساهلين في حقوقِ الجار ، والذين اعتراهمُ الجُبن ، وأقعدهم الخوف ، قولُ بشر بن أبي خازم :

ذُنـابـىٰ لا يفـونَ بعهـدِ جـارٍ ولبسـوا ينعشـون لهـم فقيـرا

وفي ديوانِ أميرِ شعراءِ العصر الجاهلي امرىء القيس ، نجدُ هجاءً وذمّاً لبني نبهان الذين لم يفوا بحقّ الجار والجوار فيقول :

دعْ عنك نهباً صِيْحَ في حجراتِهِ ولكن حديثاً ما حديثُ الرّواحل
كأنَّ بني نبهان ألوتْ بجارهم عُقَابُ تَنُوفىٰ لا عُقَاب النواعل

ـ وعند عنترة نجدُ ذمّاً للجار ، وتحذيراً من مجاورة اللئام الذين ذلَّ جارهم ، ويدعو إلىٰ الرحيل والابتعاد عن هؤلاء فيقول :

ولا تجـاورْ لئـامـاً ذلَّ جـارُهُـمُ وخلِّهم في عراض الدَّار وارتحلِ
لا يشربُ الخمرَ إلا مَنْ له ذممٌ ولا يبيتُ لـه جـارٌ علىٰ وجـلِ

ـ وتبدو طبيعةُ ذمّ الجار واضحةَ المعالمِ في شِعْرِ الحُطيئة الذي يذمُّ مَنْ قصَّرَ في جواره فقال :

ألـمْ أكُ جـارَكـمْ فتـركتمـونـي لكلبـي فـي ديـاركـم عـواءُ
فلمـا كنـتُ جـاركـم أبيتـم وشـرّ مـواطـنِ الحـب الإبـاءُ
ولمـا كنـتُ جـارهـم حبـونـي وفيكـم كـان لـو شئتـم جِباءُ[1]

ـ هذا وأبياتُ الحطيئة السينية مشهورة في ذمّ الزّبرقان بن بدر عندما احتج لبغيض وعذره ، ثمّ ذمَّ الزبرقان وهجاه ، وأظهر هوان جاره الذي طال وهو بجواره فقال :

ما كانَ ذنبُ بغيضٍ أنْ رأىٰ رجلاً ذا فـاقـة فـي مستـوعـرِ شـاسِ
جاراً لقومٍ أطالوا هون منزله وغـادروه مقيمـاً بيـن أرمـاس

ـ ويذمُّ بشرُ بنُ أبي خازمٍ أحدَ الذين غدروا بجارهم ، ويؤكد له أنه غدّار من أهل الغدر فيقول :

غـدرتَ بجـار بيتـك يـابـن لامٍ وكنـتَ بمثـلِ فعلتهـا جـديـرا

ـ ويذمّ بشر بن عليق الطائي الذين لا يمنعون الجار ، ولا يوفون بذمته :

---

(١) ديوان الحطيئة (ص ٩٨) .

وما تمنعونَ الجار منكم بذمةٍ تحوط ولا توفي دماؤكم دما[1]

ـ ومن طرائفِ القصص الجميلِ في ذم الجوار ما جاءتْ به المصادر ، من أنَّ أبا الأسود الدؤلي ، كان ينزلُ في البصرة في بني قشير ، فكان يُرجَمُ بالليل لرأيه في علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فيصبح فيشتكي فيقولون له : اللهُ يرجُمُك .

فيقول : لو رجمني اللهُ لأصابني ، وأنتم ترجمونني ولا تصيبون . وقال :

ألا مَنْ يشتري داراً برخصٍ كراهةَ بعضِ جيرتها تُباعُ[2]

ـ وقد سَخِرَ الشُّعراءُ والأدباءُ ، وذمّوا الجار الهزيل في الندىٰ والمكارم ، فهذا أحدهم يقول :

---

(١) قصائد جاهلية نادرة (ص ١٨٨) .

(٢) انظر : وفيات الأعيان (٢/ ٥٣٥) ، وإنباه الرواة (١/ ٢١ و ٢٢) ، وتاريخ العلماء النحويين للمفضل بن محمد بن مسعر التنوخي المعري المتوفي سنة (٤٤٢ هـ) تحقيق د . عبد الفتاح محمد الحلو (ص ١٦٨) .

لا يأملُ الجارُ خيراً منْ جوارهم ولا محالةَ من هزءٍ وألقابِ

ـ ومنْ نماذج ذمّ الجار وهجائه وخذلانه ، ما أورده أبو تمام الطائي في حماسته ، من شعر البرج بن مسهر الطائي الذي تهكّم بجيرانه تهكُّماً واضحاً ، وطرق في ذمِّهم بما يشبه المدح ، وذلك زيادة في السخرية والتهكم فقال :

فنِعْمَ الحيُّ كلبٌ غير أنّا رأينا في جوارهمُ هَنَاتِ
ونعم الحي كلبٌ غير أنّا رُزينا من بنين ومن بناتِ
تركنا قومنا من حرب عامٍ ألا يا قومِ للأمرِ الشتاتِ
فإنْ نرجع إلى الجبلين يوماً نصالح قومنا حتىٰ الممات[1]

ـ وقد نجد ذمَّ الجار في صور كثيرة في أدبنا العربي ، فهذا أحدهم يبيع بيته ، ويبتعد عن مكان إقامته لوجود جار مذموم الخصال والفعال ، وعندما جاء اللومُ والعتابُ منْ أصدقائه أجابهم قائلاً :

يلومونني أنْ بعتُ بالرخص منزلي ولم يعلموا جاراً هناك ينغِّصُ

---

(١) ديوان الحماسة (١/ ٣٥٩) .

فقلتُ لهم كفّوا الملام فإنما بجيرانها تغلو الدّيار وترخصُ

ـ وقال غيره في هذا المعنىٰ :

اطلبْ لنفسك جيراناً تجاورهم لا تصلح الدارُ حتىٰ يصلح الجار

ـ فكم منْ رجلٍ من أهل الفضل والمكارم هجر داره ليفارقَ جاره ، ويكفَّ عن نفسه ، وعن أهله بوائقه وشروره وآثامه .

وإنَّ جارَ السُّوءِ منَ المصائب الكبرىٰ في هذه الحياة ، والجار السُّوء معضلة ، بل داءٌ عضال أو مرض خبيث ، وقد تكون الأذية طبعاً لهذا الجار ، فيكلمه الناس أن يكفَّ أذاه عن جيرانه ، ولكن لا يستجيب لهم ، بل يزداد أذية ، ولا فائدة من نصحه وعلاجه :

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير منَ الرمضاء بالنار

ـ ولهذا نجد أنَّ عمرَ بنَ الوردي يدعو إلىٰ اختيار الجار أولاً فيقول :

جاورْ إذا جاورتَ بحراً أو فتىٰ فالجارُ يشرفُ قَدْرُه بالجار

ـ وفي عصرنا الحالي يرسمُ لنا محمود سامي البارودي

سوء الجوار ، فقد ابتلاه الله بجارة مقلقةٍ للراحةِ ، تبدِّدُ ضوضاؤها وجلبتُها أفكاره وخيالاته ، فلا بدعَ إذا سخط عليها ، وبرم بها ، ونفثَ ما يعانيه من ثِقل دمها ودم صبيتها ، ترىٰ ماذا قال البارودي؟! :

إلىٰ اللهِ أشكو طولَ ليلي وجارةً ... تبيتُ إلىٰ وقتِ الصَّباحِ بإعوالِ
لهـا صبيـةٌ لا بـارك اللهُ فيهـمُ ... قِياحَ النواصي لا يَنَمْنَ علىٰ حالِ
صواريخ لا يهدأن إلا مع الضحىٰ ... منَ الشَّرِّ في بيت منَ الخيرِ ممحالِ
تـرىٰ بينهـم يـا فـرّقَ اللهُ بينهـم ... لهيبَ صِياحٍ يصعدُ الفلك العالي
كـأنَّهـم ممـا تنـازعـنَ أكلـبٍ ... طُرِقن علىٰ حين المساء برئبالِ
فَهِجْنَ جميعاً هيجةً فزعتْ لها ... كلابُ القرىٰ ما بين سَهْل وأجبالِ
فلمْ يبقَ من كلبٍ عقورٍ وكلبةٍ ... من الحي إلا جاء بالعمِّ والخالِ
وفزّعتِ الأنعامَ والخيلَ فانبرتْ ... تجاوب بعضاً في رغاءٍ وتصهالِ
فقامتْ رجالُ الحيّ تحسبُ أنَّها ... أصيبتْ بجيشٍ ذي غواربَ ذيّالِ
فمِنْ حاملٍ رمحاً ومنْ قابضٍ عصاً ... ومنْ فزعٍ يتلو الكتابَ بإهلالِ
ومن صبيةٍ رِيعتْ لذاك ونسوة ... هوائم دون البابِ يهتفن بالوالي
فيا ربِّ هَبْ لي منْ لدنك تصبّراً ... علىٰ ما أقاسيهِ وخذهم بزلزالِ

الباب الثامن

الجار والمرأة

الفصل الأول : صيانة المرأة الجارة

الفصل الثاني : مكانة الجارة

الفصل الأول

صيانةُ المرأة الجارة

قبل أنْ نعرّج علىٰ بابٍ آخر ، وفصولٍ أخرىٰ مِنْ كتابنا هذا ، ألفيتُ ثروةً أدبيةً رائعةً في تاريخنا الوضيء منذُ القِدَم تزخرُ بمكانةِ النّساء ، ودورهن في أدب الجوار ، ولاشكّ في أنَّ هذا الموضوعَ شائقٌ وجميل ، وإن كان شائِكَ البحث ؛ وذلك لصعوبةِ تتبُّع هذه المادة في المصادر الكثيرة والكبيرة والواسعة ، والتي هي أقرب إلىٰ النّدرة لقلّتها ؛ ولكنّ القارىءَ الكريمَ سيجدُ بعض اللمسات الساحرة الآسرة في تاريخ نسائنا الزّاهر في هذا المجال ، كما سيجدُ أخلاقَ العربِ ومكارمهم في صونِ الجارة ، وسيقرأُ ما وصلنا من نفحاتهم في هذا المجالِ اللطيفِ الذي يشيرُ إلىٰ أصالةِ هذهِ الأمةِ ، وإلىٰ خيرِها

ومكانتها بين الأمم الأخرىٰ .

ـ لقد نظرَ العربُ في الأعصرِ الجاهلية إلىٰ المرأة الجارة نظرة ملؤها التوقيرُ والاحترام ، وذلك معرفةً لحرمتها ، فقد تكون المرأة الجارة في كنفِ القومِ أضعف مستجير ، وقد لا يكون لها نصراء ، لهذا كلّه اهتموا بصيانتها وحماية كرامتها ، وامتدحوا ومدحوا مَنْ يحافظ عليها ، ويرعىٰ حقَّ جوارها ، وجوار حقّها ، وكانوا يعدّون هذا من كمالِ المروءةِ ومحاسنِ الأخلاقِ وكريم الشمائل .

ـ ولما أظلَّ الإسلامُ بجناحيهِ الدُّنيا ، ساهم في إثراءِ مكارمِ الأخلاقِ ، وحثَّ علىٰ فضائلِ الأعمالِ ، وأبانَ بشكلٍ أوضح وأكرم حقَّ الجار ، وحقّ الجوار ، وخاصةً حسن جوار المرأة ، فأضحىٰ صون عفّة المرأة الجارة خلقاً كريماً وسلوكاً دينيّاً محموداً .

ـ وقد جاءت في هذا المجالِ الرّحبِ الكريم آثارٌ وأحاديث تحثُّ عليه ، وتجعل الاهتمام بالجارة والمحافظة عليها من فضائل الدِّين ، ومن التكافلِ الاجتماعي .

ـ وعندما تعرّضَ العربُ في نفحاتهم الشعرية المتنوعة ، لم ينسوا أن ينوّهوا إلىٰ حفاظهم علىٰ المرأةِ الجارة وصونها ، واعتبروا ذلك ذِروة مكارمِ أخلاقهم ، وكرم طباعهم ، فالمرأة في جوارهم امرأة حصان ، لا يجرؤ أحدٌ أن يمسَّ سيرتها بسوءٍ ، وكانوا أنفسهم يبتعدون عن مواضع الظنِّ والتُّهمة ، وفي شعر الأعشىٰ أمثلة لذلك حيث يقول :

وجارة جنبِ البيت لا تبغِ سرّها فإنَّك لا تخفىٰ علىٰ اللهِ خافيا[1]

ـ وعلىٰ الرغم من غرامِ الأعشىٰ بالمرأةِ والزّنىٰ والخمرة ، وعلىٰ الرغم من أنَّ سببَ عشاه[2] هو امرأة ، إلا أنه كان

---

(١) انظر : ديوان الأعشىٰ (ص ٣٨١) .

(٢) منَ الطريفِ هنا ، وتماماً للفائدة أن نشيرَ إلىٰ سبب عشىٰ الأعشىٰ ، واسمه : ميمون بن قيس ؛ ما رواه هو عن نفسهِ أنَّهُ قال :

كنتُ يوماً بمنفوحةَ ـ اسم موضع باليمامة ؛ وهو اليوم منطقة كبيرة في مدينة الرياض بالسعودية ـ حين انتصفَ النهار ، وننتظرُ ورودَ الشاء عليَّ ، فالتفتُّ التفاتة ، فإذا =

يتمسّك بأهداب الأخلاق ، في الحفاظِ علىٰ الجارة ، ويعظم حرمتها إكراماً لجوارها ، واعترافاً بهذا الأدبِ الطيّب فيقول :

ولا تقربنْ جارةً إنَّ سرّها عليك حرام فانكحنْ أو تأبّدا

ـ وقد كان علماءُ المسلمين وأئمتُهم يحبّون أنْ تنتشرَ مكارمُ الأخلاقِ بينَ النَّاسِ ، وأنْ يتفكّه فيها الناسُ في أنديتهم ، وفي كلِّ مكان ، وخصوصاً الحفاظ علىٰ الجارة ، لما في ذلك من غرس كريم الأخلاقِ في النفوس ، وفي تهذيبها وتربيتها علىٰ مائدةِ الفضائل ، فقد ذكر ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ قصةً تُؤنِسُ المُجالِس وتبهجُ المَجَالِسَ ، فقال: مرَّ

= الحوضُ مُترعٌ ، وإذا فيهِ امرأةٌ شابةٌ جميلةٌ حاسرةٌ عن ساقيها وسط الحوض ، فلما رأيتُها راعتني بجمالها ، فألقيتُ منْ يدي الدّلو ، حتىٰ إذا دنوتُ منها ، فتناولتها أهوتْ إلىٰ الأرض ، فأخذت قبضةً من تراب ، فألقت بها في وجهي وعيني ، فأخذني في عينيَّ ألمٌ شديدٌ ، فوضعتُ يدي علىٰ عيني ثلاثة أشهر لا أفتح عيناً ، ثم انكشف عني ، ولم يبقَ من بصري إلا سفافة أعشو بها . ثم إنَّ الأعشىٰ عمي بعد ذلك . (الممتع في صنعة الشعر للنهشلي ص ١٤٠) .

مالك بنُ أنس فقيهُ المدينةِ بقينةٍ تغني شعراً تقولُ فيه :

أنتِ أختي وأنتِ حرمةُ جاري ... وحقيقٌ عليَّ حفظُ الجوارِ
إنَّ للجارِ إنْ تغيبَ غيباً ... حافظاً للمغيب والأسرار
ما أبالي أكانَ للبابِ سترٌ ... مسبلٌ أم بقي بغير سترِ

فوقفَ يستمعُ إليها ثم قال : علموا أهليكم هذا ونحوه[1] .

ـ ومن بديع ما نَصِلُ به إلىٰ ختامِ هذه الفقرة نفثات النساء ، في أحلىٰ ما يُقال في صيانةِ المرأة ، ما قالته الفارعةُ بنتُ شداد ترثي أخاها وتحمد جيرته :

فنعمَ الفتىٰ ويمينُ اللهِ قد علموا ... يحلو به الحي أو يغدو به الغادي
هو الفتىٰ تحمدُ الجيرانُ مشهده ... عند الشتاءِ وقد همُّوا بإخماد[2]

---

(١) انظر : بهجة المجالس وأنس المجالس (١/ ٢٩٠) .
(٢) للمزيد من موضوع رثاء الشاعرات لإخوتهن ، اقرأ موسوعتنا « نساء في قصور الأمراء » ترجمة « الخِرنق بنت بدر » حيث عقدنا فصلاً مفيداً عن هذا الموضوع وهو مفيدٌ ـ بإذن الله ـ فليراجع .

ـ وقالتِ الهيفاءُ بنتُ صبيحٍ القضاعية ترثي بعلها نوفل بن سمير ، وتشير إلىٰ حسن جواره :

لا يرهبُ الجارُ منه غدرة أبداً وإنْ ألمَّت أمور فهو كافيها

ـ أما الخنساء ، فتصف صخراً بأنَّ جارَه أو جارته محفوظٌ لا يؤذىٰ :

وجارك محفوظٌ منيعٌ بنجوةٍ منَ الضَّيمِ لا يُؤذىٰ ولا يتذلّل

* * *

الفصل الثاني

مكانةُ الجارة

ـ لم تحظَ الآدابُ العالمية كلّها ، كما حظيَ أدبنا العربي وتراثنا الكريم باحتفائه بمكانةِ الجارة ، والحفاظ علىٰ النساء في الحِلِّ والترحال والغيابِ والحضور .

ـ فالمرأةُ الجارةُ ذاتُ مكانةٍ محفوظةٍ في عالمِ المكارمِ ودنيا الوفاء ، فهي مرعيةُ الجانبِ ، نظيفةُ الشّرفِ ما دامتْ في جوارِ الجارِ الكريمِ الشهمِ ، وهي في صيانةٍ لا يرفعُ إليها طرفه ، بل يكون غضيض الطرف ، لا يتطلع إليها ، أو يطمع في الحديث معها بغش ، ويقوم بحاجتها حسبما تقتضيه الظُّروف .

ـ وتشيرُ الأخبارُ والأشعارُ والحكاياتُ التي وصلتنا عن

العربِ إلىٰ أنَّ الجارةَ كانتْ موفورة العرض في جوارهم ، حصاناً لا تمتدُّ إليها يدُ لامس ، بل إنَّ الجارَ يحافظُ علىٰ عفافها محافظته علىٰ عينيه ، إذ المروءةُ تقتضي ذلك ، وينعىٰ حاتم الطائي ـ وهو الشاعر العربيُّ الجاهلي ـ علىٰ الرجل صاحبِ المروءة والنخوة أنْ يزورَ جارته تحت أستار الظلام ، فقال :

إذا ما بتُّ أختلُ عرسَ جاري ليخفيني الظلامُ فلا خفيتُ
أأفضحُ جارتي وأخونُ جاري معاذَ اللهِ أفعلُ ما حييتُ[1]

ـ وفي شعر حاتم تتجلىٰ الأخلاقُ الفاضلةُ ، والتّرفع عن الدَّناءةِ ، والحفاظ علىٰ المرأةِ الجارة ، حتىٰ لا يختلس نظرة إليها في ضياءٍ أو ظلام ، إلا إنْ كانَ يحملُ هدية :

ولا نطرقُ الجاراتِ مِنْ بعد هجعةٍ منَ الليلِ إلا بالهديةِ تُحْمَلُ[2]

ـ أما أنَّه يمشي ويسلّم عليها فذلك شيءٌ بعيدٌ عن أخلاقه

---

(١) ديوان حاتم (ص ٢٢٣) .
(٢) المصدر السابق (ص ٢٣٢) .

ما دام هناك حمامٌ يغرّد :

فأقسمتُ لا أمشي إلىٰ سرّ جارتي يدَ الدَّهرِ ما دامَ الحمامُ يغرِّدُ

ـ وإذا ما استعرضنا جانبَ جوارِ المرأةِ في تلكم الحقبةِ ، لألفينا كثيراً من الشُّعراء والبُلغاء قد خلّدوا مآثرهم ومكارمهم في أبيات تفصحُ عن وفائهم للجارة ، وترفُّعهم عن كلامها وسؤالها عن رجالها ، أحضور أم غياب ، بل لا يفاجىء الجارة بالوقوف أمام بيتها ، يقولُ عقيل بن عُلَّفة المري في هذا المعنىٰ :

ولستُ بسائلٍ جارات بيتي أغيّابٌ رجالك أم شهود
ولستُ بصادر عن بيتِ جاري صدورَ العير غمّرهُ الورود[1]

ـ وعندما كانتِ الخنساءُ تصفُ أخاها في رثائها ، كانتْ تجعلُ نصيباً من شعرها فيه بذكر مكارم أخلاقه ومكانة الجارة عنده فتقول :

---

(١) شرح ديوان الحماسة (١/ ٤٠٠) .

لـمْ تَـرَهُ جـارةٌ يمشـي بسـاحتهـا لريبة حين يُخلي بيته الجارُ[1]

ـ إنَّ العربيَّ الكريمَ الشمائل ، يأنفُ من زيارة الجارة إذا ما كانَ الرجل غائباً لكيلا تجرُّ الأحاديثُ ما لا تُحمد ، ولنستمع إلىٰ أبيات في هذا المضمار ، أوردها ابنُ قتيبة لبشار بن بشر المجاشعي :

وإنّي لعفٌّ عنْ فكاهةِ جارتي وإنّـي لمشنـوءٌ إلـيَّ اغتيـابهـا
إذا غابَ عنها بعلُها لم أكنْ لها زؤوراً ولـم تـأنـس إليَّ كـلابهـا
ولم أكُ طلاّباً أحاديثَ سرِّها ولا عالماً مِنْ أيّ حوكٍ ثيابها
وإنَّ قـرابَ البطـنِ يكفيـك ملـؤه ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها[2]

ـ وهذا حجر بن حبة العبسي يصرّحُ بأنَّه يعرفُ مكانةَ الجارة ، فلا يسارّها الحديث ، ولا يخبرها همساً دفعاً للـريبـة ، فهـو حسـنُ الجـوار ، عفيـف المعشـر ، يصـون العرض ، وهو لا يخلو بها ، لأن الخلوة بها مآلها إلى

---

(١) ديوان الخنساء (ص ٤٩) .
(٢) عيون الأخبار (٣/ ١٨٣ و ١٨٤) .

الفساد ، فيقول :

لا أحرم الجارة الدُّنيا إذا اقتربتْ ولا أقومُ بها في الحيّ أخزيها
ولا أكلِّمُهـا إلاّ عـلانيـةً ولا أخبّـرهـا إلاّ أنـاديهـا[1]

ـ وعند شعراءِ العصرِ الإسلامي ، نجد بعض المعاني الكريمة الرائعة لمكانة الجارة ، وذلك في مساحةٍ كبيرة من أشعارهم ، ومنهم كثير عزّة الذي يقول :

نساءُ الأخلاءِ المُصافين مَحْرَمٌ عليَّ وجاراتُ البيوتِ كنائن

ـ ويخصُّ الأحوصُ الأنصاري امرأةَ الصَّديق والجارة بالمكانةِ العليا في مساحة الأخلاق الأدبية فيقول :

ثنتـان لا أدنـو لـوصلهمـا عرسُ الخليلِ وجارةُ الجُنُب
أمـا الخليـلُ فلسـتُ فـاجِعَـه والجـارُ أوصـانـي بـه ربّـي[2]

ـ وكان العربُ يتواصون فيما بينهم ـ وخصوصاً أهل النهىٰ والشرف منهم ـ أن يحافظوا على مكانةِ الجارة بسترها ، وذلك

---

(١) الحماسة (٢/ ٣٠٧) .
(٢) ديوان الأحوص (ص ٨٣) .

بغضِّ أبصارهم عنها ، فهذا أحد الشعراء يمتدح بعض الكبراء بأنه لايهتك ستر جارته ولا ينظر إليها فيقول :

لا يهتكُ السِّتر عنْ أنثىٰ يطالعها ولا يشـدُّ إلـىٰ جـاراتـهِ النَّظـرُ

ـ ويقول الأبيرد الرياحي في هذا المجال :

وإنْ جارةٌ حلَّتْ إليهِ وفىٰ لها فبانتْ ولمْ يُهتك لجارتهِ سترُ

ـ ولعلَّ حاتمَ الطائي قد ضرب مثلاً شروداً في مكارم الأخلاقِ في الحفاظ علىٰ مكانةِ الجارة ، ومعرفة قدرها وقدر جاره ، فهو لا يزورها إذا ما غاب بعلها ، بل هو يحافظُ علىٰ الودادِ ، وعلىٰ مكانةِ الجوار والجار ، حيثُ يبعث لها بما تحتاجه مع جارته ، وما أجمل مكارم الأخلاق!! ولنستمع إلىٰ إنشاده الرائع في هذا المضمار :

وما تشتكيني جارتي غيرَ أنَّني إذا غابَ عنها بعلُها لا أزورها
سيبلغها خيري ويرجعُ بعلها إليها تُقْصَر عليَّ ستورها[1]

---

(١) ديوان حاتم (ص ١٠٧) .

ـ وأما لبيدُ بن ربيعة فيجعل من جارة ممدوحهِ المكانةَ التي تُغْبَطُ عليها فيقول :

وجـارتـهُ إذا حلَّـت إليـهِ لهـا نفـلٌ وحـظٌّ فـي السَّنـامِ
فـإن تقعـدُ فمكـرمـةٌ حَصَـانٌ وإن تظعـن فمُحسنـةُ الكـلام[1]

ـ إن الأصيل كريم المنبت لا يتغير مهما تغيرتِ الأحوال ، فمعدنُ الكرامة والأصالة لن تخدشه قسوة الأيام ، ووعورة الأزمات ، وستبقىٰ مكانة المرأة هيَ هيَ في الذّروة العليا ، ومكانة الجار في سدّة منيعة ، ويجسّد مسكين الدّارمي هذه المعاني بأبياته السائرة الشهيرة فيقول :

لا يـرهـبُ الجيـرانُ غـدرتنـا حتـىٰ يـواري ذكـرنـا القبـرُ
لسنـا كـأقـوام إذا كَلَحـتْ إحـدىٰ السنيـن فجـارهـم تَمْـرُ
مـولاهـم لحـمٌ علـىٰ وضـمٍ تنتـابـه العِقْبـان والنسـرُ
نـاري ونـارُ الجـار واحـدةٌ وإليـهِ قبلـي تنـزلُ القـدرُ

---

(١) ديوان لبيد (ص ٢٠٤) .

مـا ضـرَّ جـاري إذْ أجـاوره ألا يكـــونَ لبيتـــه سِتْـــرُ
أعمىٰ إذا مـا جارتـي خرجت حتـىٰ يـواري جـارتـي الخـدرُ
ويُصـــمُّ عمـــا كـــان بينهمـــا سمعـي ومـا بـي غيـره وقـرُ[1]

* * *

(١) ديوان مسكين الدارمي (ص ٤٥) .

الباب التاسع

من سير النساء في الجوار

الفصل الأول : قصةُ البسوس ومقتل كُليب

الفصل الثاني : زينب بنت النبي ﷺ تجير زوجها

الفصل الثالث : « قد أجرنا مَنْ أجرتِ يا أمّ هانىء »

الفصل الأول

قصةُ البسوسِ ومقتل كُليب

قصةُ البسوسِ هذهِ من القصصِ الشعبي التي يعرفها أكثرُ الناسِ ، لما ارتبطت به من رواية « الزير سالم » وأشباهها ؛ ولما كانت تحلو بها الأسمار عند هبوب نسمات الأسحار .

ـ ومنَ العجيب أنني لقيتُ أناساً يحفظون كثيراً من الأشعار والوقائع المزعومة في سيرة الزير سالم ، وينشدونها عن ظهر قلب ، وهمُ منتشون فرحون بما يقدّمون من وجبات ـ بزعمهم ـ ثقافية ، وأنَّ تاريخنا العربي مفعمٌ بالرجولةِ والبطولة والإقدام .

ـ لكن الذي يهمنا هو ما جاءَ في المصادر التي تحدثت عن حربِ البسوسِ بشكل منطقي ، وكان سبب ذلك جوار

البسوس[1] المشؤوم علىٰ ابن أختها جسّاس بن مرّة .

ـ وملخص ذلك ومحصله : أنَّ العربيّ في عصر الجاهلية كان يحرص علىٰ الوفاء لمن استجار به ، ولو كلّفه ذلك ما كلَّفه من غالي الثَّمن ؛ وحرب البسوس التي اندلعت بين بكر وتغلب عشرات السنين[2] ، وأهلكت مَنْ أهلكت من الشباب والشِّيْب ، تلك الحرب اشتعلت من أجل البسوس ، ومن أجل الحفاظ علىٰ حُسْن الجوار ، نعم حُسن الجوار .

ـ يروىٰ أنَّ البسوس ابنة منقذ التميمية ، كانت في جوار ابن أختها جسّاس ، وكانتِ البسوس قد أجارت رجلاً من قومها ، وكانتْ لها ناقة يُقال لها سراب ، وكانت رقيقة حسنة ، وصادفَ أنْ شاهدها كُليب بن ربيعة سيّد بني تغلب ،

---

(١) اسمها : البسوسُ بنت منقذ من بني تميم ، وضرب بها المثل في الشؤم ، فقالوا : أشأم من البسوس .

(٢) قيل : استمرت هذه الحرب حوالي أربعين سنة ، وكان لهم ست وقائع مشهورة أربع منها لتغلب على بكر وواحدة قد تساويا فيها ، والأخيرة كانت لبكر علىٰ تغلب .

وكانت ترعىٰ في حماه ، فرمىٰ كُليب ضرعها بسهم فاختلطَ دمُها بلبنها ، فصاحت البسوس : واذلاّه ؛ فقال لها جساس : اسكتي فلك بناقتك ناقةٌ أعظم منها ، فأبتْ أن ترضىٰ حتى صاروا لها إلىٰ عشر ، فأبتْ أيضاً ، وعرض عليها ما تشاء من الإبل فرفضت ؛ فلما كانَ الليلُ أنشأتْ تخاطبُ ابنَ أختها سعداً أخا جساس ، وترفعُ صوتها تسمعُ جسّاساً :

أيا سعدُ لا تغررْ بنفسك وارتحلْ ... فإنّي في قومٍ عن الجار أموات
ودونـك أذوادي إليـك فـإنّنـي ... محـاذرة أن يغـدروا ببنيّـاتـي
لعمرك لو أصبحتُ في دارِ لمنقذٍ ... لما ضيمَ سَعْدٌ وهو جارٌ لأبياتي[1]
ولكنني أصبحـتُ فـي دار معشـر ... متىٰ يعدُ فيها الذِّئبُ يعدو على شاتي[2]

ـ ولمـا سمعهـا جسّـاس قـال لهـا : اسكتـي لا تُـراعـي ، ووعدها أنْ يعقرَ بناقتها فحلاً أعظم منها .

---

(١) منقذ : هو أبو البسوس ، وهو من قبيلة تميم .
(٢) تسمي العرب هذه الأبيات الموثبات ، لأن البسوس لما أنشدتها أوغرتِ الصدور .

ـ وفي اليوم التالي وثبَ جساس علىٰ كليب فقتله غدراً ، فاندلعت إذ ذاك حربٌ بين الحيين دامت طويلاً ، وفي ذلك قال جساس :

إنّمـــا جـــاري لعمـــري ... فـــاعلمـــوا أدنـــىٰ عيـــالـــي
وأرىٰ للجـــــارِ حقّـــــاً ... كيمينـــي مـــنْ شمـــالـــي
وأرىٰ نـــاقـــةَ جـــاري ... فـــاعلمـــوا مثـــل جمـــالـــي
إنّمـــا نـــاقـــةُ جـــاري ... فـــي جـــواري وظـــلالـــي
إنَّ للجـــــار علينـــــا ... رفـــع ضيـــم بـــالعـــوالـــي
فـــأقلّـــي اللـــومَ مهـــلاً ... دونَ عِـرْضِ الجـار مـالـي
ســـأودي حـــقَّ جـــاري ... ويـــدي رهـــن فعـــالـــي
أو أرىٰ المـــوت فيبقـــىٰ ... لـــؤمـــه عنـــد رجـــالـــي

ـ وهي قصةٌ طويلة ، لكننا اخترنا منها ما يوافق موضوعنا[1] .

---

(١) انظر : أخبار المراقسة (ص ٢٤٨) . والعقد الفريد (٣٤٨/٣) ، مع الجمع والتصرف ، وانظر قصة هذه الحرب كاملة في كتاب : أيام العرب في الجاهلية (ص ١٤٢ـ١٦٨) .

الفصل الثاني

زينب بنت النبي ﷺ تجير زوجها

ـ أبو العاص بنُ الربيع صهرُ رسولِ اللهِ ﷺ ، وهو زوج ابنة رسول الله ﷺ الكبرىٰ زينب رضي الله عنها وأرضاها ، وهو رجل منْ رجالات مكة المعدودين في أمنائها وعقلائها وأهلِ ثرائها ، وأهل المروءات في أشرافها ، وهو ابن أخت سيدتنا خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها ، أمه هالة بنت خويلد الأسدية ، وكان رسول الله ﷺ يثني عليه في صهره ، وكان منْ أكرمِ الناسِ وفاءً في عشرته الزوجية ، وتقديره لهذا الإصهار الكريم .

ـ ولما بُعثَ رسولُ اللهِ ﷺ ، عَرَفَ أبو العاص ما كان يدعو إليه النبي ﷺ من الهدىٰ والخيرِ والتوحيد ، ولكنه كان

في شُغُلٍ عن الاستجابةِ إلىٰ الإيمان باللهِ ورسولهِ ، وآمنت زوجته سيدتنا وابنة نبينا زينب مع أمها وإخوتها في أوّل مَنْ آمنَ بالدعوةِ لم يسبقهم إلىٰ الإيمان بها أحدٌ قط .

ـ ولما طفقتْ قريش تعادي الدّعوة وتقاومها ، كان أبو العاص في معزلٍ عن طغيان قريش ، ولم تُعْرف له حركةٌ في مقاومةِ الدعوة قط ، وقد كفَّ يده ولسانه عن أصحاب رسول الله ﷺ ، وشغله ماله وحياؤه من رسول الله ﷺ عن مواقف الشراسة القرشية في مقاومة الدعوة إلىٰ الله ؛ قال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ : وكان أبو العاص مصاحباً لرسول الله ﷺ مصافياً .

ـ وكانت زينب رضي الله عنها تكرمُ أبا العاص ، وعندما كانت الهجرة ظلّت زينب في مكة مع زوجها ، وفي السنة الثانية من الهجرة كانت غزاة بدر وكان أبو العاص من بين أسرىٰ قريش ، وعندما علمتْ زينب بأسرِهِ ، بعثت في فدائه قلادة زواجها به ، فتوجّه رسولُ اللهِ ﷺ إلىٰ أصحابهِ في أنْ يطلقوا لزينب أسيرها ، ويردوا عليها الذي لها ، وكان ردُّ

القلادة أهم من ردّ المال عند رسول الله ﷺ .

ـ وكانَ رسولُ الله ﷺ قد أخذ علىٰ أبي العاص عندما أطلقه أن يخليَ سبيلَ زينب لتلحق به ، وتكون مع أخواتها بالمدينة ، وقد وفىٰ أبو العاص بما وعد ، وأرسلَ زينب لتكونَ في كنفِ رسول الله ﷺ .

ـ وأقامَ أبو العاص بمكة علىٰ دين قومه إلىٰ قبيل غزاة فتح مكة ، حيث خرج في تجارةٍ لقريش ، فلقيته سرية من أصحابِ رسول الله ﷺ وهو في رجوعه إلىٰ مكة ، فأخذوا جميعَ ما معه ، وأعجزهم هرباً ، حتىٰ جاء تحت جنح الليلِ إلىٰ زينب رضي الله عنها ، فاستجار بها ، فأجارته دون علمٍ من أبيها رسول الله ﷺ ، فلما خرج النبي ﷺ لصلاة الصبح وكبّر ، وكبّر النّاس ، صرختْ زينب منْ صفّة النساء : أيها النّاس إني قد أجرتُ أبا العاص بن الربيع ! !

ـ ولما سلّم رسول الله ﷺ من صلاته أقبل علىٰ الناس وقال : « أيها النّاس هل سمعتم ما سمعتُ »؟!

قالوا : نعم .

فقال ﷺ : « أما والذي نفس محمد بيده ، ما علمتُ بشيء حتىٰ سمعتُ الذي سمعتم ، وإنه يجير علىٰ المسلمين أدناهم » .

ـ ثُمَّ دخلَ علىٰ ابنتهِ وقال لها : « أي بنية ، أكرمي مثواه ، ولا يخلص إليك ، فإنَّك لا تحلّين له » .

ـ فأخبرته أنه جاء بطلب ماله ، وجمع رسول الله ﷺ تلك السرية ، وأشار إليهم بأن يحسنوا إلىٰ أبي العاص ، ويردوا عليه ما أخذوه ؛ فردُّوا ذلك بكلّ حبّ وإيمان ويقين .

ـ وهكذا أقرَّ النبي ﷺ جوار زينب لأبي العاص ، وأخبر النّاس لهم أنَّ المسلمين متكافلين يجير عليهم أدناهم .

ـ ومن الرائع والمثير حقاً في هذه القصة ، أن أبا العاص أدّىٰ الأموال إلىٰ أصحابها في مكة ، ولما أدّاها وفرغ من ذلك ، أسلم ، وقدم علىٰ رسولِ الله ﷺ مسلماً مؤمناً ، فازدادَ له إكراماً ، وردّ عليه زوجته وابنة خالته رضي الله عنها .

ـ وعاش أبو العاص في ظلال الإسلام حتىٰ لقي ربّه بعد وفاة زوجته بأربع سنين ، وذلك في ذي الحجة من السنة الثانية عشرة من الهجرة النبوية في خلافة سيدنا أبي بكر الصديق عليه هطائل الرضوان ، وسحائب الغفران .

* * *

الفصلُ الثالث

« قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانىء »

ـ منَ المثير في قصص الجار ، قصة أم هانىء بنت أبي طالب ـ رضي الله عنها ـ التي أمضىٰ رسول الله ﷺ مَنْ أجارته ، وقَبِلَ ذلك .

فقد كانتِ النساء في الجاهلية يُجِرْنَ الخائف ، وكانتْ تُقبلُ إجارتهن ، ولما جاء الإسلامُ حفظ للنساء المسلمات مكانتهن ، وأجاز لهنَّ إعطاء الجوار .

ـ وقد رأينا في الفصل السابق أنَّ زينب بنت سيدنا رسول الله ﷺ قد أجارت أبا العاص وأُجيزت إجارتها ، وسجّلَ تاريخُ السيرة النبوية ذلك ، لتظلَّ إجارة المرأة علامة بارزة في جبين الدّهر .

ـ فبُعيد غزاةِ الفتحِ الأعظمِ لمكةَ المكرمةِ ، أجارتْ أم هانىء ابنة أبي طالب ـ رضي الله عنها ـ رجُلين من أقربائها ، كان قد حُكمَ عليهما بالقتل مع مَنْ حُكمَ من المجرمين ، وقبلَ النبي ﷺ إجارة أم هانىء ، وكان الخير بذلك ، فكيف كانتْ إجارتها؟!

ـ ذكرتِ المصادر العديدة قصة الإجارة فيما ذكرته أم هانىء قالت : لما نزل رسول الله ﷺ بأعلىٰ مكة يوم الفتح ، فرّ إليَّ رجلان من أحمائي[1] ، فدخلَ عليَّ أخي علي بن أبي طالب فقال لي : والله لأقتلنهما يا أم هانىء .

ـ فأغلقتُ عليهما باب بيتي ، ثم جئتُ رسولَ الله ﷺ فقال لي : « مرحباً وأهلاً يا أم هانىء ما جاء بكِ »؟!

---

(١) أحماء : جمعٌ مفردها حمو ؛ وهو أبو زوج المرأة ، وأبو امرأة الرجل ، ويطلق علىٰ مَنْ كان قريباً للزوجين . أما الرجلان اللذان أجارتهما أم هانىء فهما : عبد الله بن أبي ربيعة ، والحارث بن هشام ، وهما من بني مخزوم .

ـ فأخبرتُه خبرَ الرجلين ، ثُمَّ أخبرته خبرَ أخي علي ، وما عزمَ عليه من قَتْلِ الرّجلين ، فقال لي : « قد أجرنا مَنْ أجرتِ يا أمّ هانىء ، وأمَّنَّا مَنْ أمّنتِ ، فلا يقتلهما » .

ـ وهكذا قَبِلَ الحبيب المصطفىٰ ﷺ إجارةَ أم هانىء ، وعرف أصحاب رسول الله هذه المنقبة الفريدة لأم هانىء ، فحظيتْ باحترام الجميع ، وظلّ حديثُ إجارتها حديثَ الأيام والأعوام فرضي اللهُ عنها وأرضاها .

* * *

الباب العاشر

من نفحات الجار وأندائه

الفصلُ الأول : الجارُ بين أقوال المشاهير
وحقائق التاريخ

الفصلُ الثاني : الجارُ في الحِكَمِ والأمثال

الفصل الأول

الجارُ بينَ أقوالِ المشاهير وحقائقِ التاريخ

ـ لعلنا في هذا الفصل نأتي علىٰ بعضِ الأقوالِ الشهيرة ، وبعض الحِكَم الجميلة التي تتحدثُ عن الجارِ إيجاباً وسلباً ، فحصادُ الألسنةِ في هذا المجالِ حصادٌ وفير ، وزادٌ يصلح لغذاء العقول وتلقيح الأذهان .

ـ ولعلَّ موضوعَ الجار يتّصلُ بحبلٍ وثيق في شروط المروءة ، إذ المروءة تقتضي أنْ يرعىٰ الإنسان الجار بكل الأحوال ، وذلك لدنو داره ، واتصال مزاره ، ومعرفة أحواله وأسراره ؛ قال الحسنُ البصري : ليس حسن الجوار كفّ الأذىٰ عن الجار ، بل الصّبر علىٰ الأذىٰ من الجار[1] .

---

(١) تنبيه الغافلين (ص ١٤٣) .

ـ وهذا ما فعله أحد فضلاء العقلاء ، فقد كان يرعىٰ جوار جاره ، بيد أنَّ جاره علىٰ الرغم من تجاورهما لا يلتقيه ولا يكلّمه ، فكتب إليه معلّماً ومنبّهاً : مَثَلُنا ، أعزّك الله ، في قرب تجاورنا ، وبُعْدِ تزاورنا ما قال الأول :

ما أقربَ الدارَ والجوار وما أبعدَ مع قربنا تلاقينا

وكلُّ غفلةٍ منك محتملةٌ ، وكل جفوةٍ مغفورةٌ ، للشّغف والثقة بحسنِ نيتك ، وسآخذ بقول أبي قيس ـ بن الأسلت ـ :

ويكرمها جاراتُها فيزرنها وتعتلُّ عن إتيانهن فتعذرُ[1]

ـ وقال بعضُ الحكماء في الجار : مَنْ أجارَ جاره ، أعانَهُ اللهُ وأجاره .

ـ والإحسانُ إلىٰ الجار يدلُّ علىٰ كرم الأصْلِ والحسب ، قال أحدُ البلغاء : مَنْ أحسنَ إلىٰ جاره ، فقد دلّ علىٰ حسن نجاره[2] .

---

(١) انظر : عيون الأخبار لابن قتيبة (٣/ ٢٥) .
(٢) النجار : الأصل والحسب .

ـ ومنْ نفحات الشُّعراء :

وللجارِ حقٌّ فاحترز من أذاتهِ وما خيرُ جارٍ لا يزلْ لك مؤذيا

ـ إنَّ صاحبَ المروءة يتحمّلُ أثقال الجار ، ويسعفُه في النّوائب ، ولا يَكِلُهُ إلىٰ غيره ، بل يسأل[1] عنه ، ويعطيه ويريه كرم السّخاء والنّدىٰ :

حقٌّ علىٰ السيِّد المرجو نائِلهُ والمستجارُ بهِ في العُرب والعَجَمِ
ألاّ يُنيلَ الأقاصي صوبَ راحتهِ حتىٰ يخصَّ بهِ الأدنىٰ منَ الخدمِ
إنَّ الفراتَ إذا جاشتْ غواربُه روّىٰ السّواحل ثُمَّ امتدَّ في الأمم

ـ وكانَ الخلفاء يحضّون علىٰ تعلُّم مكارم الأخلاق ، وحفظِ جواهر الكلام في حُسْن الجوار ؛ يروىٰ عن عبد الملك بن مروان أنَّه قال لمؤدب ولده : إذا رويتهم شعراً ،

---

(١) من بدائع الأخبار ؛ ما جاء في عيون الأخبار حيث قال ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ : كان الرجلُ فيما مضىٰ إذا أراد شَيْنَ جاره أو صاحبه طلبَ حاجته إلىٰ غيره (عيون الأخبار ١/ ٢٩٦) .

فلا تروّهم إلا مثل قول العُمير السلولي :

يبيـنُ الجـارُ حيـن يبيـنُ عنّـي ولـم تـأنـس إليَّ كـلابُ جـاري
وتظعنُ جارتي منْ جنب بيتي ولـم تستـرْ بستـرٍ مـن جـوار
وتـأمـن أنْ أطـالـعَ حيـن آتـي عليهـا وهـي واضعـةُ الخمـار
كـذلـك هـدىٌ آبـائـي قـديمـاً تـوارثـه النجـار علـىٰ النِّجـار

ـ قال أبو الليث السمرقندي ـ رحمه الله ـ : ينبغي للمسلم أن يصبرَ علىٰ أذىٰ الجار ، ولا يؤذي جاره ، ويكون بحالٍ يكونُ جاره آمناً منه ، وأمانُه لجاره يكون بثلاثة أشياء : باليدِ ، وباللسان ، وبالعورة :

فأمّا أمانُه بلسانه : فهو ألاّ يتكلم بكلام لو دخل عليه جاره لسكت ، أو لو بلغ إلىٰ جاره لاستحىٰ منه .

وأمّا أمانه بيده : فهو أنَّ جاره لو كان بالسُّوق ، وتذكّر أنَّ كيسه ـ أي ماله ـ نسيه في منزله ، فإنه لا يخاف عليه ، ويقول : منزله ومنزلي سواء .

وأما أمانه بالعورة : فهو أنه لو كان في السّفر ، فبلغه أنَّ

جاره دخلَ منزله لسكنَ قلبه وفرحَ[1] .

ـ وذكر أنَّ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : ثلاثة أخلاق كانت في الجاهلية مستحسنة ، والمسلمون أولىٰ بها :

أولها : لو نزل بهم ضيفٌ لاجتهدوا في برّه .

والثاني : لو كانت لواحد منهم امرأة كبرت عنده ، لا يطلقها ، ويمسكها مخافة أنْ تضيع .

والثالث : إذا لحق بجارهم دَيْن ، أو أصابه شدّة أو جهد ، اجتهدوا حتىٰ يقضوا دينه ، وأخرجوه من تلك الشدّة[1] .

ـ وقال أبو الليث السمرقندي : تمام حُسنِ الجوار في أربعة أشياء :

أولها : أن يواسيه بما عنده .

والثاني : ألا يطمع فيما عنده .

---

(١) تنبيه الغافلين للسمرقندي، تحقيق: يوسف بديوي (ص ١٤٣) .

والثالث : أنْ يمنعَ أذاه عنه .

والرابع : أنْ يصبرَ علىٰ أذاه[1] .

* * *

(١) المصدر السابق نفسه .

الفصل الثاني

الجارُ في الحِكَم والأمثال

ـ وردتْ في الحكمِ والآثارِ والأمثال أقوال كثيرة عن الجار والجوار ، وأثرت عن الجارِ كثيرٌ منَ النّفحات الطيبة عن الأنبياء والحكماء ، فمن ذلك أنَّ نبي اللهِ داود ـ عليه السلام ـ كان يخاف جار السوء ، ويتعوذ منه ، وكان يقول : اللهم إنِّي أعوذُ بك من جار السوء ، عينه ترعاني ، وقلبُه لا ينساني[1]!!..

ـ وذكر ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ أنَّه مكتوبٌ في التوراة : إنَّ أحسدَ الناسِ لعالِم ، وأنعاه عليه قرابته وجيرانه[2] .

---

(١) بهجة المجالس (١/ ٢٨٩) .

(٢) المصدر السابق .

ـ وكان يُقالُ في الأمثال : الحسدُ في الجيران ، والعداوة في الأقارب[1] .

ـ ومما حُفظ مِنْ حكمةِ عمرَ بنِ الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ في حقّ الجار قوله : مِنْ حقِّ الجار أنْ تبسط له معروفك وتكفّ عنه أذاك[2] .

ـ إن ترك أذىٰ الجيران من مكارم الأخلاق ، وشيم الكرام ، قالَ عليٌّ للعبّاس ـ رضي الله عنهما ـ : ما بقي منْ كرم أخلاقك؟

قال : الإفضال علىٰ الإخوان ، وترك أذىٰ الجيران[3] .

ـ ومن الكلمات الحلوة التي جرتْ مجرىٰ الأمثال قولهم : جار له حقٌّ ؛ وجارٌ ما له حقٌّ ، وجار صحبته عافية .

---

(١) بهجة المجالس (١/ ٢٨٩) .
(٢) المصدر السابق (١/ ٢٩٢) .
(٣) المصدر السابق نفسه .

ـ وقولهم : جارك مرآك ، إن لم ينظر وجهك ، ينظر قفاك .

ـ وقولهم : جارك القريب ، ولا قريبك البعيد .

ـ وجاء في كتاب جمهرة الأمثال للعسكري قولهم :

جاري بيت بيت ؛ ومعناه : أنَّ بيته إلىٰ جانب بيتي .

ويقولون : هو جاري مكاسري ومطانبي[1] .

ويقولون : جاورْ بحراً أو ملكاً ؛ ومعناه : اطلب الخصب .

ـ وأخذ الشاعر كُشاجم هذا المعنىٰ ، فقال يخاطب ابن مقلة الخطاط الشّهير :

أصبحتُ جارك فاكنفني برأيك مِنْ ... دهرٍ أراهُ لصدري مُرصداً نَبْلَهْ

إنّي لموضعُ أنسٍ حين تفرُغ لي ... وإنْ شُغِلْتَ فكافٍ ترتضي شُغْلَهْ

وقيلَ كنْ جارَ بحرٍ أو فِنا ملك ... وأنتَ جاري وساباطي علىٰ دجْلَهْ

---

(١) جمهرة الأمثال (١/ ٢٦٠) ؛ ومكاسري : أي : كِسْرُ بيتي إلىٰ كِسْر بيته ، ومطانبي : أي طُنب بيتي إلىٰ طُنب بيته .

ولا أسومك إلا الجاهَ تبذله فتستعيضُ به منْ مِدحتي حُلَلْ

ـ وللجار نصيبٌ في كلام علي بن أبي طالب الذي يجري مجرىٰ الأمثال قوله المشهور : الجار قبل الدار ، والرّفيقُ قبل الطريق[1] .

ـ وقد أخذ هذا المعنىٰ بعض الشعراء فقال :

يقولون قَبْلَ الدّار جارٌ مجاورٌ وقَبْلَ الطّريقِ النّهجِ أُنسُ رفيق

ـ وقال آخر ، وقوله يجري مجرىٰ الأمثال أيضاً :

اطلب لنفسك جيراناً تجاورهم لا تصلح الدار حتىٰ يصلح الجار[2]

ـ وهذا أحد الشعراء يصفُ حسنَ جوارِهِ وإحسانهِ إلىٰ جاره ، وكفّ الأذىٰ ، وما يكره عنه ، فيقول :

أقولُ لجاري إذْ أتاني مُعاتباً مـدلاً بحـقٍ أو مـدلاً بباطـلِ
إذا لم يصلْ خيري وأنتَ مجاوري إليـك فمـا شـرّي إليـك بـواصـلِ

---

(١) بهجة المجالس (١/ ٢٩٠) وجمهرة الأمثال (١/ ١٧٩) ، مع الجمع والتصرف .
(٢) المصدران السابقان .

ـ ومن القصص الحلوة التي تجري مجرىٰ الأمثال : أنه ساوَم جارٌ لفيروز بن حُصين في دارٍ له ، فلما قاموا علىٰ الثّمن قال : هذا ثمن الدّار ، فأينَ ثمن جوار فيروز؟

واللهِ لا أبيعه إلا بضعفي ثمن الدّار! فبلغ ذلك فيروز ، فبعث إليه بضعفي ثمنها ، وتركها له .

ـ ومن القصص اللطيفة أيضاً في هذا المجال هذه القصة : قال ابن سلام : مرّ طلحةُ بن عوفٍ أخو عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ بدار ابنِ أذينة الشّاعر ؛ وهو ينادي عليها ، فقال : إنَّ داراً قعدنا فيها ، وتحدّثنا في ظلّها لمحقوقةٌ أنْ تُمنَعَ منَ البيعِ ، وبعثَ إلىٰ ابنِ أذينةَ بثمنها ، وأغناه عن بيعها[1] .

ـ ومما يُستحلىٰ في هذا المجالِ ويُستجلىٰ ما جرىٰ لأبي الجهم العدوي ، فإنَّه باعَ داره بمئة ألفِ درهم ثم قال : فبكم تشترون جوارَ سعيد بنِ العاص؟!

قالوا : وهلْ يُشترىٰ جوارٌ قطّ!

---

(١) جمهرة الأمثال (١/ ١٧٩) .

قال : ردّوا عليَّ داري ، ثُمَّ خذوا مالكم ، لا أدعُ جوار رجلٍ إنْ قعدتُ سأل عني ، وإن رآني رحّب بي ، وإنْ غبتُ حفظني ، وإنْ شهدتُ قرّبني ، وإنْ سألته قضىٰ حاجتي ، وإنْ لم أسأله بدأني ، وإنْ نابتْني جائحةٌ فرَّجَ عني . فبلغ ذلك سعيداً ، فبعثَ إليه بمئةِ ألف درهم[1] .

ـ ومنَ الأمثال السّائرة عند العرب في جيران السُّوء قولهم :

بعتُ جاري ولم أبِعْ داري .

وقولهم : لا ينفعك مِنْ جارِ سوءٍ توقّ .

وقولهم : هذا أحقُّ منزلٍ بترك .

ـ وكانت العربُ تمتدحُ بالذّبِّ عن الجار ؛ فمن أقوالهم التي جرتْ مجرىٰ الأمثال : فلانٌ منيعُ الجارِ ، حامي الذّمار .

---

(١) انظر : وفيات الأعيان لابن خلّكان (٢/ ٥٣٥) ، وأمثال هذه القصص كثيرة في آدابنا وتراثنا ، ومنثورة في ثنايا المصادر .

ـ وقال مروان بن أبي حفصة يمدحُ معنَ بنَ زائدة ، ويصفُ مفاخرَ بني شيبان ، ومنعهم من استجار بهم :

هُمُ القومُ إنْ قالوا أصابوا وإن دُعُوا ... أجابوا وإنْ أعطوا أطابوا وأجزلوا

هُمُ يمنعون الجار حتىٰ كأنما ... لجارهمُ بين السماكين منزلُ[1]

وبعد ـ عزيزي القارىء ـ فقد كانت رحلتنا معطاءَ ممراحَ مع أنداءِ الجارِ في رحابِ القرآنِ والسُّنة والأدب ، وأرجو الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ أن أكونَ قدْ وفقتُ في رسمِ معالم الجار والجوار فيما يرضي الله عَزَّ وجَلَّ أولاً ، ويعجبُ أحبّائي القرّاء ، حيثُ إنَّ رصيدي هو محبّة القرّاء الكرام الذي يشجعوني علىٰ الاستمرار في الكتابة ، إذْ إنَّني أتلقّىٰ نفحاتُ إعجابهم بأنداءِ قلبي ، فأجعل لها المكانة اللائقة بمحبتهم .

ـ اللَّهُمَّ اجعل عملَنا خالصاً لوجهك الكريم .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

* * *

---

(١) انظر : العقد الفريد (٦/ ١٣٥) .

فهرس الموضوعات

مقدمة ٥

الباب الأول: الجار والجوار في التراث ١١

الفصل الأول: الجار والجوار في التراث ١٣

الفصل الثاني: أسباب ظهور الجوار ١٦

الفصل الثالث: الجار في اللغة ٢١

الباب الثاني: الجار في القرآن الكريم ٢٧

الفصل الأول: الجار في آيات القرآن ٢٩

الفصل الثاني: من نفحات الجار في هدي القرآن ... ٣٤

الباب الثالث: الجار في الهدي والسنة النبوية ٤١

الفصل الأول: الجار في الهدي النبوي ٤٣

الفصل الثاني: الجار في أحاديث المصطفى ﷺ ... ٤٧
الفصل الثالث: التربية النبوية في معاملة الجار ٥٣

الباب الرابع: الجار في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ ... ٥٩
الفصل الأول: النجاشي خير جار ٦١
الفصل الثاني: النبي ﷺ جار أبي أيوب الأنصاري .. ٦٩

الباب الخامس: من قصص الجار السيىء في عصر النبوة ٧٩
الفصل الأول: سوء جوار اليهود في المدينة ٨١
الفصل الثاني: سوء جوار يهود بني قينقاع ٨٣
الفصل الثالث: سوء جوار يهود بني النضير ٨٦
الفصل الرابع: سوء جوار يهود بني قريظة ٨٩
الفصل الخامس: سوء جوار أبي لهب وعقبة بن
أبي معيط ٩٣

الباب السادس: الجار في حياة العرب وأدبهم ٩٩
الفصل الأول: إكرام الجار ١٠١
الفصل الثاني: حماية الجار ١٠٨

الباب السابع: الجار بين المدح والذم ١١٥
الفصل الأول: مدح الجار ١١٧
الفصل الثاني: ذم الجار ١٢٢
الباب الثامن: الجار والمرأة ١٢٩
الفصل الأول: صيانة المرأة الجارة ١٣١
الفصل الثاني: مكانة الجارة ١٣٧
الباب التاسع: من سير النساء في الجوار ١٤٥
الفصل الأول: قصة البسوس ومقتل كليب ١٤٧
الفصل الثاني: زينب بنت النبي ﷺ تجير زوجها .. ١٥١
الفصل الثالث: قد أجرنا مَنْ أجرت يا أم هانىء ... ١٥٦
الباب العاشر: من نفحات الجار وأندائه ١٥٩
الفصل الأول: الجار بين أقوال المشاهير وحقائق
التاريخ ١٦١
الفصل الثاني: الجار في الحكم والأمثال ١٦٧
فهرس الموضوعات ١٧٥